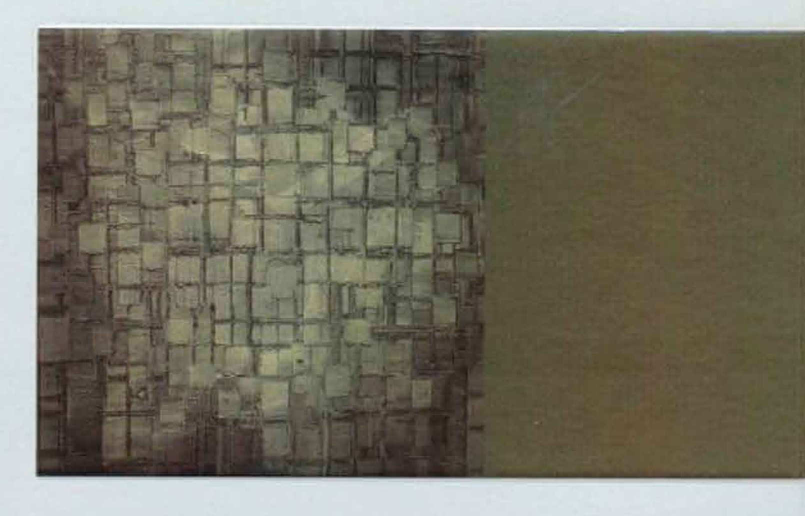
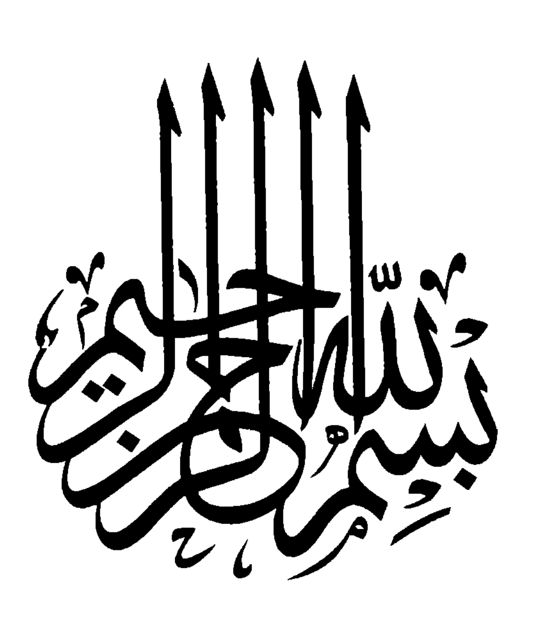
دار الحضارة للنشر والتوزيع

رقائق القرآن



إبراهيم بن عمر السكران


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله وبعد:

إنسان هذا العصر منهمك في دوامة الحياة اليومية، أصبح الواحد منا كأنه ترس في دالوب المهام والتفاصيل الصغيرة التي تستلمك منذ أن تستيقظ صباحاً، حتى تلقيك منهكاً فوق سريرك في أواخر المساء.

دوامٌ مضنٍ، ورسالة جوال، وبريد إلكتروني، وتعليق فيسبوكي، وخبر تويتري، ومقطع يوتيوبي، وتنقل بين الفضائيات، وصراخ منبهات في طرق مكتظة، وأعمال مؤجلة كلما تذكرتها قرصك

الهـم، والتزامـات اجتماعيـة آخـذٌ بعضهـا بـركاب بعض، إلخ إلخ.

هل نظم الاتصالات المتقدمة هذه مشكلة؟ لا، قطعاً، بل هي نعمةٌ من الله يجب تسخيرها فيما يرضيه، لقد جنينا منها الكثير، نعم ربحنا، لكن لا أدري، أشعر أننا خسرنا «الصفاء».

صفاء الذهن، وخلو البال، والتأمل الرقراق حين يتطامن السكون من حولك..

حين يكون الإنسان في فلاةٍ من الأرض، وتناديه عشرات الأصوات تتناهشه من كل جهة، فإنه لا يزداد إلا تيهاً وذهولاً، وأرانا ذلك الرجل الذاهل بين ضجيج المدنية المعاصرة..

وخصوصاً، إذا انضاف إلى ذلك أنماط الترفيه التي غزت حياتنا، والاسترسال في السهرات مع الأصدقاء في استراحات الضياع..

ومن أفظع نتائج هذا الانهماك المضني في تروس المدنية المعاصرة تلك القسوة التي تدب إلى القلوب

فتستنزف الإيمـان، وتفزع السكينة الداخلية، حتى صارت شكوى شائعة..

ألم يحن لنا أن نستقطع وقتاً نهرب فيه من هذا التطاحن المعاصر لنعيد شحن أرواحنا بنسيم الإيمان..؟

ألم يأن لنا أن نرقق قلوبنا بالقرآن..؟

وكون القرآن هو المفزع لتزكية النفوس وترقيق القلوب وتصفية الأرواح وانتشالها من الثقلة الأرضية ليس استنباطاً أو وجهة نظر، بل هو حقيقة دل عليها القرآن ذاته.

كما قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾[2].

ووصف الله القرآن بأنه موعظة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[3].

والحقيقة أنه كانت تمر بي مشاهدات اجتماعية في الحياة اليومية فكنت أتأمل بعضها في ضوء القرآن، وأتنقل

(١) سورة ق، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٤٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ٥٧.

بين الآيات، وأقلب معانيها، وأحاول أن أستخلص هدايات القرآن في مثل هذه الأحداث والمواقف، ثم أسجل خلاصة هذه التأملات في فصول متناثرة في أوقات متفاوتة..

وقد كانت تلك التأملات لا تزيدني إلا دهشة من أسرار القرآن في تليين القلوب وترقيقها، وتزكية النفوس، وبناء السمو والرقي والجمال الأخلاقي والتعبدي فيها..

وفي هذه الرسالة التي بين يديك ستمر بك حصيلة بعض هذه التأملات، فهذه الرسالة في جوهرها هي مشاهدات اجتماعية مررت بها ثم عرضتها تحت سراج القرآن، وانكشف لي فيها معانٍ أخاذة في ترقيق القلب، وتليينه وتزكيته وتطهيره، وإعادته لمساره الطبيعي، ودونت خلاصة هذه النتائج والتأملات في هذه الفصول التي ستمر بك بإذن الله.

والله أعلم، وصلَّى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

أبو عمر

ذي القعدة ١٤٣٣هـ

iosakran@yahoo



ذهول الحقائق

في يوم الأربعاء الثاني من شهر الله المحرم، لعام ثلاثة وثلاثين وأربعمائة وألف؛ قدِم إلى الرياض أحد أقاربي يكنى بأبي عبدالكريم، وهو في منتصف الأربعينات من عمره، وكانت بيني وبينه مودة حميمية خاصة، وإلى هذه الساعة ما رأيت مثله في سلامة القلب للناس، والإحسان للمستضعفين كالعمال والجاليات والأطفال ونحوهم، وله علي فضل خاص لا أنساه ما حييت..

وما إن وصل منزلي إلا وكانت آثار الإرهاق بادية عليه، فطلب فراشاً ونام في المجلس ساعةً..

ولما حان موعد الغداء أيقظته وتناولنا الغداء سوياً، ثم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث، فأثار صاحبي مسألة (صلاة الجماعة للمسافر)، وطلب مني كتباً عن هذا الموضوع..

فصعدت لمكتبتي وأتيت بجزء الصلاة من فتاوى ابن باز التي فرّغت من نور على الدرب، وفتاوى ابن عثيمين التي جمعها الشيخ فهد السليمان..

قرأنا المسألة التي أرادها، ثم استأذن صاحبي وغادر..

هذا كان يوم الأربعاء، وفي يوم الجمعة الذي يليه اتصلت بي والدتي تقدم لي خبراً على التدريج، فقالت لي: أبو عبد الكريم، يا وليدي، الحمد لله على قدره، جاءه حادث.

ثم سكتت.

سألتها: وفي أي مستشفى هو الآن؟

فقالت لي: توفي، الله يرحمه..

صمتُّ برهةً، وودعت الوالدة وأغلقت الهاتف، كل الذي دار في خلدي تلك الساعة أن الوالدة أتاها الخبر بشكل خاطئ، وأن أبا عبد الكريم قطعاً لم يمت..

مكثت قليلاً ثم عاودت الاتصال، وسألت والدتي: أنت متأكدة من الخبر؟

قالت: هاهم أهله يبكون يا وليدي، الله يرحمه.

ودّعت الوالدة مرةً أخرى، وأغلقت الهاتف، وبقيت في مكاني لا أعرف ماذا أصنع..

ثم اتصلت بشقيقه، فلما رد علي وسمعت صوته المتهدج، دب إلي اليقين.

وسألته: أبو عبد الكريم..؟

فقاطعني، وقال بصوت ممزوج بعبرات متكسرة: أبو عبد الكريم يطلبك الحل.

أدرت محرك سيارتي متوجهاً لمنزله خارج الرياض، وذهبت في نفر من أهله إلى مغسلة الموتى التي سيغسل فيها.

انتظرنا سويعةً، وحين فرغ المغسل أذن لنا بالدخول، وكشف لنا عن وجهه، فسلمت عليه، وقبلت بين عينيه، ودعوت له، ولم أملك نفسي حينها أن قلت: ما أطيبك حياً وميتاً يا أبا عبد الكريم.

جلسنا في منزله وقدم بعض الناس يعزون، وأنا لا زلت غير قادر على الإفاقة من صدمة المواجهة.

عدت للرياض، ومكثت ليالي وصورته لا تفارق ناظري، وأعيد تذكّر كل كلمة قالها حين كان في ضيافتي يوم الأربعاء الذي سبق وفاته.

بل وكنت أدخل مجلس منزلي، وأشاهد الزاوية التي افترشها ونام فيها، وأشكو بثي وحزني إلى الله، وأكظم أزيزاً في داخلي ما استطعت.

مررت بحوادث ووفيات كثيرة، لكن لأول مرة يهجم علي الإحساس بقرب الموت ودنو الأجل بمثل هذه الصورة..

لما كنت في منزل ذويه، والمعزّون يقدمون عليهم، كنت أطالع وجوه الناس، وأنظر لنفسي بينهم وأقول: كلنا قدمنا للعزاء، وغالبنا يظن أن المصيبة مصيبة غيره، وننسى أن هناك ساعة سجلت لكل واحد منا سيغادر فيها هذه الحياة، وسيغسّل، ويوضع في كفنه، ويوسد لحده، وتصف اللبنات فوقه، ويهال عليه التراب، وينصرف الناس عنه.

من الناس من سيموت في هذا الشهر، ومنا من سيموت قبيل رمضان هذا العام ولن يدركه، ومنا من سيدرك سنةً أو سنتين أو ما زاد على ذلك، ولكنها النهاية المحتومة..

ساعةٌ مكتوبةٌ قريبةٌ منا سنغادر فيها هذه الحياة..

هذه الساعة التي تم تحديدها قبل أن تخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم كتبها الملائكة الكرام في التقدير العمري حين كان الإنسان جنيناً عمره أربعة أشهر، نحن نسير إليها الآن بالعدّ التناقصي..

فإذا كان العام الماضي يفصلنا عنها ثلاث سنين، فاليوم يفصلنا عنها سنتان، وهكذا نحن نقترب كل دقيقة من هذه اللحظة الحاسمة للانتقال للدار الآخرة والمسكن الأبدي..

هذه الحقيقة الكبرى كيف غفلتُ عنها طوال هذه السنوات؟

وكيف يغفل كثير من الناس عنها؟

الكثير من الناس يعرف هذه الحقيقة معرفة نظرية عقلية بحتة، لكنه لم يعشها يقيناً قلبياً غامراً يستحوذ على تفكيره..

ومن أعاجيب النفوس، وما يمور فيها من الأحاسيس؛ أن بعض الناس يكره ذكر الموت، ويدور في مشاعره الخفية أنه حين يتحاشى ذكره فإنه يبتعد عنه، وأنه حين يذكره فسيكون قريباً منه، ويتكلف الأسباب المشروعة وغير المشروعة في مدافعة الموت؛ يظن أنه سيؤجل يومه المكتوب، وهذا (الفرار النفسي) من الموت صوره القرآن تصويراً تبكيتياً حين قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾[(١)].

وهَبْ أنك فررت، وافترض أن خطراً من الأخطار سلمت منه؛ فحتى ما ستعيشه بعد ذلك سيظل فترة زمنية محدودة، يقول تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(٢)].

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٦.

فحتى لو سلمت من خطر معين، فسيظل المتاع قليلاً، وسيأتي خطر لن تفر منه..

وصوّر القرآن معنى آخر قريباً من الفرار، وهو «التحايد»..

ذلك أن «الفرار» ابتعاد عن موضع الخطر، وأما «التحايد» فهو أشبه بمحاولة التحاشي عن سهام الموت، يقول تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾[1].

فلن ينفع الفرار، ولن ينفع التحايد، وستأتي قريباً ساعة الانتقال للدار الأبدية.

بل تأمل ما هو أعجب من ذلك، وهو أن الإنسان يسير بقدميه إلى الموضع الذي كتب الله وفاته فيه، وهو لا يعلم القدر المخبوء، حيث يقول تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾[2].

بل قد تجد كثيراً من الناس يمر بطريق، أو غرفة، أو مستشفى، أو غيرها، سنوات عديدة من عمره،

---

(١) سورة ق، الآية: ١٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

ولا يخطر بباله أن هذا الموضع الذي يمر به يحتمل أن يكون هو الذي كتب الله وفاته فيه بعد كذا وكذا من الساعات والدقائق..

والمراد أن هذه اللحظة القادمة التي تنتظرني وتنتظرك يا أخي الكريم؛ لحظةٌ لا تقبل التأجيل ولا التقديم، ساعة قررها الجبار جل جلاله، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1].

ومن جملة التعلق بالأسباب المادية أن كثيراً من الساسة والأثرياء يتوهمون أنهم في قصورهم المشيدة أبعد عن مخاطر الموت من سكان الشقق والصفيح والأحياء العشوائية، والقرآن يكشف هذا الشعور المزيف، حيث يقول تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[2].

ولذلك فإن فريقاً من الناس يكره فريضة (الجهاد) لأنه يظن أنها تقربه للموت! وينسى أن الموت قُرِّرت له ساعة

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٨.

معينة قبل أن يخلق، وقد شرح القرآن شيئاً من هذا التصور كما يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾[1].

ولذلك يعرف الناس قصصاً كثيرة لمقاتلين تمرغوا فوق جبهات الشظايا، وزحفوا تحت قصف الطائرات، ومع ذلك عادوا لبلدانهم وعمروا سنين عددا.

ويعرف الناس بالمقابل أصحاء أشداء داهمهم الموت فجأة فوق أسرَّتهم الأنيقة..

لماذا؟ لأن هذه الآجال محسومة قبل أن يخلق الناس، لا ينفع فيها فرار ولا تحايد، ولا محاولة تجاهل وتناسٍ للحظة فراق الدنيا..

بل إن بعض الجهلة إذا ذُكِر له أن رجلاً من الناس مات في سبيل الله يقع في قلبه أن سلامته هو من هذا الموت نعمة من الله! وهذا نظير تفكير عبدالله بن أبيّ حين حكى الله تصرفه ومقالته: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٢.

لقد وقفت بعد هذه الجنازة المهيبة، وأخذت أتذكر قوائم من الأصدقاء والأقرباء وغيرهم ممن حانت ساعة رحيلهم المكتوبة، وودعونا في السنوات السابقة..

تذكرت أصدقاء درسوا معنا في المرحلة الثانوية، وأصدقاء درسوا معنا في الجامعة، وأقرباء كانوا يخالطوننا بشكل دوري..

وتذكرت علماء كانوا سمع الدنيا وبصرها، حين كنا نتداول أخبارهم، تذكرت ابن باز، وابن عثيمين، وابن جبرين، وابن غديان وغيرهم.

بل تذكرت رسول الله ﷺ الذي مشى في طرقات المدينة، وقرأ بالناس إماماً في مسجده النبوي، وجلس مع أصحابه بعد صلاة الفجر..

ذهبوا كلهم بين أطباق الثرى، فكيف يا ترى يأمن الإنسان ويغفل وهو يرى الناس حوله يتناقصون؟! هذا والله سر من أسرار النفس البشرية..

حين يتمعن الإنسان في هذه الحقيقة الكبرى، حقيقة الموت؛ تسري به سلسلة التساؤلات إلى هذه المفارقة التي نعيشها يومياً، أعني التناقض بين العقيدة والسلوك..

إذا كنا نؤمن فعلاً بأن لحظة توديع الدنيا قريبة منا، قريبة منا جداً، إنها لحظة بالأبواب، إنها على طرف الثمام، وقد أخذت أعداداً ممن ساكنونا وآكلونا وناقشونا وزاملونا ودرّسونا؛ فكيف يا ترى نغفل ونحن نرى أخبار الموتى لا تتوقف؟!

وقد أشار القرآن إلى هذه المفارقة بين قرب الأجل في مقابل استمرار الغفلة، فقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾[1].

وأخذت مرةً أتأمل أسباب هذه الإشكالية في كتاب الله، وأحاول البحث عن موقف القرآن من هذه العلاقة، فوجدت ثلاثة مشاهد صوّر القرآن تفاصيلها تكشف سراً من أسرار المشكلة، ألا وهي مشكلة «التأجيل».

فهذه الخطايا التي لازلنا نواقعها لا تجدنا غالباً مخططين للاستمرار عليها، وإنما نقول في أنفسنا: إنها مجرد فترة يسيرة، وسنصحح أوضاعنا جذرياً، لكن الزمان يتفارط، وينسلّ الوقت من بين أيدينا ونحن لا نشعر، حتى نتفاجأ بملك الموت واقفاً فوق رؤوسنا ليأخذ أرواحنا في الساعة المقدرة..

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١.

أرأيت؟ إنه الذهول عن الحقائق الكبرى تحت غمامة «التأجيل»..

أخبرنا كتاب الله عن فئام من الناس حين يحضرهم الموت يسألون الله أن يرجعهم، ويعاهدونه أن يعملوا الأعمال الصالحة التي أجّلوها، ولكن هيهات، لقد فات الأوان، يقول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[١].

أمامنا اليوم فرصة للعمل الصالح قبل أن تأتي هذه الساعة القريبة المفاجئة التي لن تنفع فيها التوسلات بالعودة لزمان العمل..

وأخبرنا كتاب الله عن فئام من الناس حين يحضرهم الموت يسألون الله فسحةً زمنيةً يسيرةً ليتصدقوا، ولكن بعد ماذا؟ بعد أن فات الأوان؟! يقول الله: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾[٢].

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

(٢) سورة المنافقون، الآيتان: ١٠، ١١.

وها نحن الآن في زمن إمكانية التصدق، فهل سنتردد في قرار النفقة، حتى تأتي تلك الساعة التي نبدي فيها الاستعداد للتصدق، ولكن بعد فوات الأوان؟!

وأخبرنا كتاب الله عن فئام من الناس حين يحضرهم الموت يعلنون التوبة ويستغفرون الله، ولكن هل هذا هو وقت التوبة والاستغفار؟ يقول الله: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾[1].

لازلنا الآن في الساعات الأخيرة التي تسبق إغلاق باب التوبة، والتوبة إلى الله تحتاج قراراً فورياً عاجلاً، قراراً لا يحتمل التأجيل ثانية واحدة، قراراً يجب أن يدشن الآن، قبل أن تفوت الفرصة..

هذه المشاهد الثلاثة التي ذكرها القرآن عن أحوال المحتضرين، وأمنياتهم، من أشد المشاهد زلزلة لمشاعر المؤمن الموقن بلحظة الموت وقربها، وخصوصاً إذا وضع نفسه في هذه المشاهد، فتخيل كيف لو كان هو نفسه يسأل

(١) سورة النساء، الآية: ١٨.

الله عند الاحتضار أن يعود للدنيا ليعمل صالحاً! أو يسأل الله أن يعود للدنيا ليتصدق ويكون من الصالحين! أو يسأل الله عند الاحتضار أن يتوب عليه ويغفر له!

وفي كل هذه الأمنيات يواجه بالرفض، لأنها دعوات تجاوزت الموعد النهائي للقبول! وقد كان يمكنه ذلك لو بادر قبل هذه اللحظة..

والواقع المشاهد اليوم أن من أكثر ما ينسج حول العيون حجابَ الغفلة التنافسُ الاجتماعي على الدنيا، فالمرء منذ أن يُستجر إلى «دوامة المباهاة» فإنه لا يكاد يفيق منها إلا على أعتاب القبر.

والناس اليوم كأفراس رهان على المناصب، والمساكن، والسيارات، والملابس، لا يكاد أحدنا يلتقط أنفاسه من هذه المنافسات الاجتماعية على حطام الدنيا..

وقد نبه القرآن على هذا المعنى الواسع بأوجز عبارة وأبلغ صياغة، بالله عليك تأمل قول ربنا: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾[1].

---

(١) سورة التكاثر، الآيتان: ١، ٢.

أرأيت أين تنتهي حفلة التكاثر هذه؟ تنتهي عند أول ليلة في القبر، وحينها يكتشف أحدنا أنه ضيع حياته المستقبلية الحقيقية، ولكن بعد ماذا؟ بعد فوات الزمن المحدد من الله جل وعلا.

وهذا التكاثر الذي تحدثت عنه (سورة التكاثر) جاء في آية أخرى في سورة الحديد، حيث يقول الله: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ﴾[1].

وإذا وفق الله الإنسان أن ينخلع من ملاحظة ما يكتسبه الخلق، ويتزاحمون عليه، والتحرق على المنافسة فيه، من مناصب، ومساكن، وسيارات، وعقارات، وأرصدة، ونحوها، وأقبل على ما هو أعظم من ذلك، وهو صناعة المستقبل الأبدي، وعمارة النفس بالله؛ فإنه سيكتشف للحياة معنى آخر، معنى أسمى من الحطام الصغير المؤقت..

كلما رأيت نفسي في غفلة، وكلما رأيت نفسي وقد ذهلت عن الحقائق الكبرى، أخذت أردد: فتش عن (دوامة التكاثر)!.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

وبكل صراحة فإنني لا أعرف مفهوماً عقلياً لا يكاد المرء حين يتأمله أن يطيق آثاره الإيمانية مثل المقارنة بين (أبدية الحياة الآخرة) و(تأقيت الحياة الدنيا)..

مقارنة التأقيت بالأبدية تجعل الدنيا رقماً مهملاً لا يستحق الذكر أصلاً، الأبدية ليست مئة سنة، ولا ألف سنة، ولا مليون، ولا مليار، ولكنه أبد الآبدين بلا نهاية..!

من يستطيع أن يتصور؟!

ثم قارن تلك الحياة الأبدية بالدنيا التي لا تتجاوز سُنَيات معدودة..!

مجرد التأمل في مفهوم (الأبدية) يكاد أن يصل بالنفس إلى أعظم مراتب العزم.

تأمل معي هذا المثال! لو قيل لشخص من الناس: إنك ستجلس في هذا البلد الذي أنت فيه خمس سنين، ثم سننقلك إلى بلد مجاور وستعيش فيه مئة سنة، فماذا ترى هذا الرجل صانعاً؟

لا شك أنه سيحول كل ممتلكاته وأمواله وأرصدته إلى البلد الثاني الذي سيعيش فيه الزمن الأطول،

وسيقتصد في الصرف في بلده الأول قدر الطاقة، ويتبلغ بالكفاف، لأنه ينتظر الحياة المستقرة في البلد الثاني الذي سينتقل إليه.

إذا كان هذا في المقارنة بين منزلين أحدهما خمس سنين، والآخـر مئة سنة، فكيف بالله عليك سيكون التصرف حين المقارنة بين منزل مؤقت ومنزل مؤبد لا ينتهي أصلاً؟!

ثم ليس الأمر «مؤبداً» فقط، بل قد يكون مؤبداً بأعلى درجات السعادة في قصور الجنة ونعيمها، أو مؤبداً في أحط درجات الآلام الجسدية والنفسية في أودية النار ولهيبها، كل ذلك أبد الآبدين..!

وماذا بعد مفهوم (الأبدية) من واعظ؟!

وكنت ألاحظ في كثير من كتب الفكر المعاصر أنها تكاد تخلو من ذكر الموت والدار الآخرة وصناعة المستقبل الأبدي، ويعدون ذلك شأناً غير رفيع!

فذكرت هذه الملاحظة لأحد الشباب الذين يقرؤون في هذه الكتب، فقال لي: إن هذا تصرف له ما يبرره.

قلت له: وما الذي يبرره؟

فقال لي: (إن استحضار الموت واليوم الآخر يصرف الإنسان عن بناء الحضارة والنهضة، فيجب أن نؤمن بالموت واليوم الآخر، ثم نحيّده حتى نستطيع أن نبني الحضارة والنهضة بعيداً عن الضغط النفسي لفكرة الموت واليوم الآخر)! هذا ملخص كلامه، بعضه بعبارته وبعضه بمعناه.

والحقيقة أن هذا فهم مغلوط كلياً، ولا يقول هذا الكلام رجل قرأ كتاب الله وأيقن صدقاً بمعانيه، فإن استحضار الموت واليوم الآخر هو الذي يدفع فعلاً للعمل الصالح النافع المثمر طبقاً لمراد الله..

تأمل -مثلاً- لما ذكر الله الصلاة، وهي رأس العبادات، ذكر أنه لا يطيقها إلا من يوقن بالموت ولقاء الله، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾[1].

فانظر كيف كانت الصلاة هينة ميسرة لمن امتلأ قلبه باليقين بلقاء الله..

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

ولما ذكر الله تخاذل جنود طالوت، بين أنه لم يقف ويثبت معه إلا من امتلأت قلوبهم باليقين بلقاء الله، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾[1].

فانظر كيف لم يصبر في مقام الجهاد، إلا من عمرت نفوسهم بحقيقة الموت واليوم الآخر..

وترى أمثال هؤلاء المفكرين التغريبيين - أو من أصابتهم بعض شُعب التغريب - يتندرون بمن يكثر من ذكر الموت، بل ويسميها بعضهم (عقيدة انتظار الموت) على سبيل الاستهانة والانتقاص، بالرغم من أن انتظار الموت شعبة من شعب الإيمان في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

وامتلاء القلب باليقين بقرب الأجل والحساب نبه عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾[1].

وأعاد ذات المعنى في مطلع سورة الأنبياء، فقال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ ﴾[2].

وقد كان أئمة الأولياء في هذه الأمة يستحضرون دوماً قرب الأجل ودنو الموت، فهذا رأس أولياء هذه الأمة أبو بكر الصديق -رضوان الله عليه- يستحضر هذا المعنى كثيراً، فقد روى البخاري في صحيحه قصة مؤثرة عن أبي بكر، حيث جاء فيه: «**لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وُعِك أبو بكر وبلال**»، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله

والموت أدنى من شراك نعله[3]

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١.

(٣) صحيح البخاري، (١٨٨٩).

والمراد أنه ليست الإشكالية في أن يستحوذ على القلب والعقل اليقين بقرب الأجل والحساب، فهذه شعبة إيمانية قرآنية عظيمة، وإنما الخلل هو تعطيل العمل والفتور عن الدعوة والإصلاح..

وقد أوضح كتاب الله أن اليقين بلقاء الله يدفع للمزيد من العمل، ويمنح المؤمن القوة والصبر، لا العكس كما يتوهم كثير من التغريبيين، أو من أصابتهم بعض شُعب التغريب..

والحقيقة أن استحضار الحقائق الكبرى كالموت ولقاء الله، وتمزيق ضباب الذهول الذي يلفها؛ يثمر للمرء تصحيحاً هائلاً في مسيرته العلمية والدعوية والاجتماعية، ويغير جذرياً من نظرته لكثير من الأمور، فيصبح يقرأ الأشياء على ضوء سؤال: هل تقرب من الله وتنفع في اليوم الآخر أم لا؟

وهذا السؤال القلق المشفق منذ أن يسيطر على التفكير تنقلب شخصية المرء رأساً على عقب، ويصبح نظره أبعد من مظاهر الأمور، ومسافاتها القصيرة،

ولا يزال هذا السؤال القلق يقوده ويسيّره حتى تأتي لحظة لقاء الله فيحمد العاقبة: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾[1].

ومن أعظم آثار هذا السؤال: القلق والانزعاج حول طبيعة قضاء الوقت والعمر، فالإنسان الغافل عن ذكر الموت تمر أوقاته وساعاته دون أن يتنبه ويتساءل حول جدوى ما يصنع..

لكن المؤمن الذي يهجم عليه ذكر الموت، ودنو الأجل، وقرب لقاء الله، فإنك تجده يزهد في اللقاءات والاجتماعات في استراحات الضياع التي تذهب فيها الأوقات سدى، وتتعالى فيها القهقهات، ويجوب الناس فيها أحاديث لا تقرب من الله، إن لم تكن تبعد عنه، حتى وإن كان ظاهر الجالسين الصلاح أو طلب العلم، فالعبرة بالحقائق، وما أكثر ما تكون المجالس في غير ما يقرب من الله..

---

(١) سورة الطور، الآية: ٢٧.

المؤمن المستحضر لحقيقة الموت، ودنو الأجل؛ يبخل بوقته أن يذهب في روايات تلو روايات، وأفلام سينمائية تتلاحق أضواؤها، وتتبع لتعليقات وترهات على صفحات المواقع الاجتماعية كالفيسبوك وتويتر ونحوهما، أو منتديات الإنترنت..

طالب العلم الجاد الذي تشبع بحقيقة الموت تختلف نظرته للمؤلفات والكتب، ويدب إليه الزهد في الترف النظري، ويصبح مقصوده في الكتب (معرفة الهدى بدليله)، ويضمر شغفه بمُلح العلم ونكته ولطائفه الجانبية، وتصبح في مرتبة تبعية غير مقصودة بالأصالة، وإنما مقصوده الأصلي معرفة (معاني كلام الله ورسوله) والانفعال والتخلّق بها، وبثها في الناس..

والمجاهد الذي يجاهد التيارات البدعية والفكرية المنحرفة إذا تشبع قلبه بحقيقة الموت وقرب الحساب؛ صار يقتصد في ذكر الناس إلا بقدر ما يبين الحق ويظهره، وما أحسن العبارة المنقولة عن الإمام الحافظ عبدالله بن عون شيخ شعبة وابن المبارك! أنه قال: «**ذكر الناس داء، وذكر الله دواء**»[1].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١١/٤٤٨.

والمؤمن الذي امتلأ قلبه باليقين بلحظة القبر، يتحرق على أوقات الانتظار، والمسير، والجلوس العابر؛ أن تذهب في غير ذكر الله، وأي جمال وبهاء لحالة الذاكر لله واقفاً وجالساً ومضطجعاً والتي يصفها كتاب الله في قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[1].

بل تأمل ما هو أعجب من ذلك! وهو أن الله يأمر بالصلاة التي كلها أذكار، ثم بعد الصلاة يأمر باستمرار الذكر على هذه الأحـوال، فيقول تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾[2].

بالله عليك خذ هذا المثال العابر: تأمل هذه الساعات التي فاتت من ظهر اليوم، أو من عصر اليوم، أو السهرة التي قضيتها البارحة، هذه الساعات التي فاتت، ذهبت علي وعليك، هذه الساعات سلخت من أعمارنا ولن تعود أبداً، فإن كنا عمرناها بتسبيح أو تحميد أو تكبير أو سجدة، أو مدارسة علم نافع، أو مصلحة للمسلمين؛ فإنها ستكون شاهدة غداً في صحائفنا، تبيض وجوهنا وتسرنا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

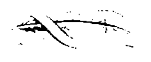
(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

في اليوم العصيب. وإن ذهبت هذه الساعات من نهار اليوم وليله سدى، فيا حسرتنا ويا غبننا في فرصة أعطيت لنا ثم سحبت ولم نستغلها!!

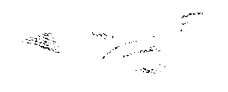
ساعات كانت لنا ثم ذهبت، نعم ذهبت ولن تعود، انتهت الفرصة..!

كلما تأملت في هذا المعنى تغشاني الذهول من برودنا أمام دقات الساعة التي لا تتوقف.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[1].



(١) سورة الزمر، الآيتان: ٥٥، ٥٦.



لحظة فداء

مشهدٌ مؤثر مر بي قبل زمن قريب، شعرت معه كأنني توقفت عن التنفس، ثم في لحظات يسيرة طافت بذهني ذكريات قصص كثيرة سمعتها، هذا المشهد الذي رأيته كأنما قدح شرارة في مخزن الذكريات، ومازالت تتقافز أمام عيني كلُّ ما أتذكره من قصص ذات صلة بهذا المشهد..

دعني أحدثك أولاً عن هذه الذكريات والقصص التي هجمت علي متزاحمة في لحظات يسيرة، ثم أروي لكم المشهد المؤثر الذي استثارها من مهجعها..

من هذه القصص التي تذكرتها قصة أحد الإخوان الذين لي بهم علاقة خاصة، حكى لي مرة أنه كان نازلاً من الدور الثاني في منزله، ويحمل بين يديه بُنيّته الصغيرة التي شارفت إكمال الربيعين من العمر..

يقول صاحبي: وأنا في وسط درجات السلّم نازلاً عثَرت قدمي، فسقطتُ، وبنيتي بين يدي، فوجدتني بشكل تلقائي سريع أنحرف إلى الأرض بالطرف الآخر من جسمي لأداري عن بنيّتي سقوطها على الأرض، وبسبب رفعي لها بكلتا يدي فإني لم أستطع أن أحمي نفسي، فتسبب لي ذلك بكدمات شديدة، وذهبت بنيّتي تكمل لعبها وهي لا تعلم ما الذي جرى لي؟!

كنت أتأمل قصة صاحبي وأتعجب كثيراً من مشاعر الأبوة هذه التي جعلته بشكل عفوي سريع يؤلم نفسه لتسلم بنيته! فيقيها بنفسه، ولا يفكر في اتخاذ القرار، بل يندفع لذلك بلا شعور في أجزاء من الثانية..!

قصة أخرى مماثلة تذكرتها أمام ذلك المشهد، وهي قصة صاحب آخر حكى لي مرة أنه لازال يتذكر وهو صغير أنه كان في ليلة من الليالي مريضاً يئن طوال الليل، وأن والدته كانت بجانبه تنظر إليه، وتختنق أنفاسها مع كل زفرة من أنينه، وتتوجع له حتى تكاد تخرج روحها من التألم له..

ليس هذا كله هو اللافت، وإنما يقول صاحبي: إنه كان يسمع والدته - رحمها الله - كانت تتمتم بدعاء وتقول: «**ياليته فيني ولافيك، ياليته فيني ولافيك وأنا أمك**».

فكنت أتعجب كثيراً كيف تتمنى تلك الوالدة الحنونة أن يكون المرض فيها وليس في ولدها؟!

يا لمشاعر الأمومة هذه التي لا يمكن تخيل مدى فدائها لفلذة كبدها!!

قصة أخرى -أيضاً- شبيهة بما سبق تذكرتها أمام ذلك المشهد، يقول لي صاحبي: إنه كان مرة من المرات في غاية الإرهاق، ويتضور جوعاً، ولما وصل المنزل كانت زوجته تعد له وجبة هي من أطيب وأشهى الوجبات إلى نفسه، وأخذ يتشاغل بكل شيء ريثما ينتهي إعداد الوجبة المرتقبة،

فلما انتهى الأمر ووُضِع الطبق بين يديه بعد أن كاد يعصره الانتظار، جلس بجانبه طفله الصغير وأخذ يشير إلى الطبق، ثم يشير إلى فمه، وينظر إلى والده! لم يكن الطفل جائعاً بقدر ما هو تطفل الصغار، ومع ذلك فإن هذه التوسلات أنسَت الوالد نفسه، وأخذ يلقّم طفله الصغير ونسي نفسه..!

يا للدهشة؟! كيف يغيب الإنسان عن نفسه أمام توسلات طفله الصغير؟! تلك أحاسيس الأبوة..

وخير من هذه القصص السابقة، وأشرف وأجل منها، قصة أخرى قفزت لذهني حين كنت أمام ذلك المشهد المؤثر، وهي قصة وقعت أمام النبي ﷺ وأصحابه في السنة الثامنة للهجرة، وذلك أنه حين جاء سبي هوازن رأى النبي ﷺ فيه أماً حنوناً ملهوفة تبحث في السبي عن صبيها. ويروي عمر بن الخطاب القصة فيقول: «قُدِم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله: «**أتـرون هذه المرأة طارحة ولدها في النار**»؟ قلنا: لا والله وهى تقدر على أن لا تطرحه.

فـقـال رسـول الله: «**لله أرحـم بـعـبـاده من هذه بولدها**»[1].

فتعجب النبي ﷺ من شدة لهفة هذه الأم بصبيها، حتى كانت تلتقط صبياً إثر صبي من السبي فتلقمه ثديها!

فيا سبحان الله! ما أعظم مشاعر الأمومة والأبوة تجاه أطفالهم! وهذا ليس شأناً مختصاً بالبشر، بل حتى الحيوانات العجماوات تحمل من مشاعر الأمومة الحنون شيئاً مثيراً للأحاسيس وكوامن النفوس، ففي سنن أبي داود عن ابن مسعود أنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمّرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمّرة فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «**من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها**»[2].

فانظر كيف كان هذا الطير يفرش جناحيه ويدنو إلى الأرض مفجوعاً بفراخه، فكيف إذن تكون مشاعر الآدميين تجاه أطفالهم؟!

---

(١) البخاري: ٥٩٩٩، مسلم: ٧١٥٤.

(٢) سنن أبي داود: ٢٦٧٧.

بل وفي صحيح البخاري أيضاً أن النبي ﷺ حين ذكر الرحمة التي أنزلها الله في الأرض يتراحم بها الخلق قال عن الحيوانات: «**حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»[1].

المهم، أن هذه القصص العجيبة الأخاذة المدهشة أخذت تتلاحق أمام عيني بصورة حزينة حين كنت أمام مشهد مؤثر مرّ بي قبل أيام، والرابط الجامع والمعنى المشترك بين هذه القصص لا يخفى على القارئ، وهي أنها كلها تعكس شدة شفقة الآبـاء والأمهات على فلذات أكبادهم..

كنت أتذكر هذه القصص السابقة، ثم أعيد التأمل في هذا المشهد الذي استحوذ على أحاسيسي، هذا المشهد الذي استثار هذه القصص من مكامنها في ذاكرتي..

أتدري ما هو هذا المشهد المؤثر الذي هيّج كل هذه القصص في نفسي يا أخي الكريم؟

---

(١) البخاري: ٦٠٠٠.

إنه بكل اختصار «آيـة» من كتاب الله كادت تذهب بلبّي وأنا أقرؤها، فكل ما أعرف من رحمة الأبوة والأمومة بأطفالهم فإنه سيذهب بها هول لحظة مشاهدة النار يوم القيامة، فيتمنى الأب العطوف والأم الحنون أن يتخلصوا من هذه النار حتى لو أرسلوا فلذات أكبادهم إليها، يقول الحق تبارك وتعالى في مشهد مرعب: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾[1].

هل نتخيل أننا سنقابل في ساعة قريبة ناراً عظيمة مخيفة تطيش أمـام زفيرها عقولنا حتى يتمنى المرء أن يفدي نفسه منها بإرسال أبنائه وبناته إليها؟ إنـه خبر الله سبحانه: ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾!

يا الله، يا فرجنا إذا أغلقت الأبواب! اللهم.. السلامة السلامة من هذه النار التي أذهبت عقل الوالدين من شدة أهوالها حتى نسوا أغلى الناس إليهم، بل تمنوا أن يكون أولادهم مكانهم ويتخلصوا منها!

---

(١) سورة المعارج: الآية: ١١.

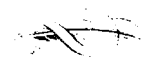
أطفالهم الذين كانوا يفدّونهم ويقدّمونهم على أنفسهم، ستأتي لحظة الفداء الكبرى التي تصعق فيها النفوس من شدة الهلع حين تسمع فوران نار يوم القيامة، وزفير لهبها، وهي تأكل الناس والحجارة.

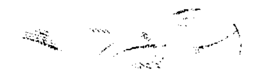
وأمام ذلك المشهد فإن الوالد يود لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه!

يا الله، إلى هذه الدرجة يصل الهول والرهبة، يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه..!

أمام هذا الذعر المهول تذهب كل تلك الأحاسيس العطوف، أي رعب أكثر من هذا الرعب الذي ينسي الوالدين مشاعر الأبوة والأمومة؟! أي مشهد مخيف ذلك الذي ينسي الوالدين فلذات أكبادهم؟! ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾..

يا ربنا السلامة، السلامة..





الإطراق الأخير

برغم أن إنسان هذه الحقبة الزمنية من التاريخ غارق في لجج المدنية المعاصرة ومنتجاتها التقنية والاتصالية، إلا أنه مع ذلك فإن المؤمن تعتريه لحظات مفاجئة بين فينةٍ وأخرى تنتشله من هذا المسلسل المتماسك، فيخرج من مدارات التفاصيل الصغيرة، ويستعيد وعيه بالحقائق الكبرى..

لحظة الصدمة تقع دوماً حين يتذكر المؤمن لحظة لقاء الله، وقرب هذه اللحظة. وقد أشار القرآن إلى مفارقة مؤلمة، وهي شدة قرب لقاء الله، مع كون الإنسان يغفل كثيراً عن هذه الحقيقة،

لقاء الله قريب ولا زلنا غافلين،كما قال الله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾[1].

والقرآن أخبر عن المعاد بطرق كثيرة متنوعة جداً، ولا أظن باحثاً يستطيع أن يستوعب الآيات القرآنية التي شرحت بعض مشاهد القيامة، وهذه الكثافة الهائلة لهذه الآيات التي تربط العقل المسلم باليوم الآخر ليست عبثاً، ولم تكن كثرتها مصادفةً أو اعتباطاً، ولكنها لأغراض لا تخفى على المهتم بمغزى كلام الله، والمعنى بمكونات القرآن ورسائله الضمنية..

والحقيقة أنه من بين الآيات التي تحدثت عن اليوم الآخر لفت انتباهي وشدني كثيراً طائفةً من الآيات صورت الناس لحظة القيام من قبورهم..

صورت تلك الآيات مشهد الذهول البشري، بالله عليك! انظر كيف يصوّر القرآن مشاعر المقصّرين في ذلك اليوم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١.

(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٢، ٤٣.

انظر كيف سنقوم من قبورنا شاخصةً أبصارنا، مهطعين أي مسرعين، ومقنعين رؤوسنا ننظر من شدة الأهوال، ومن شدة التحديق بحيث لا تطرف العين، وصف القرآن هذه الحالة بأنهم «لا يرتد إليهم طرفهم»، ومن شدة الفزع والرعب وصف الله القلوب بأنها فارغة فقال: «وأفئدتهم هواء»..

ومن التصويرات القرآنية الأليمة لتلك اللحظات، تصوير لحظة الانكسار والذل والضعة التي تعتري المقصِّر، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾[1].

بالله! تخيل نفسك منكساً رأسك في ذلك اليوم تتمنى العودة لدار العمل، وافجيعتاه!

بل وصف الله الخجل والذل في ذلك اليوم وصفاً آخر يجعل الإنسان ينظر مُسارقةً كما يقول تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾[2].

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٢.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٥.

والإنسان الذليل الخائف يسودّ وجهه، وتعلوه القتامة حتى كأن الليل البهيم يعلو محياه، كما قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾[1].

أرأيت وجهاً كأنه الليل ؟! ياللذلّ ذلك اليوم!!

ومن الصور القرآنية التي تنخلع لها القلوب صورة الجثو على الركب في ذلك اليوم، فترى الناس مستوفزين لا يصيب الأرض منهم إلا ركبهم وأطراف أقدامهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾[2].

وكما وصف الله القلوب أنها من شدة فزعها كأنما هي خالية «وأفئدتهم هواء»، فإنه في موضع آخر وصف الله القلب من شدة الرعب بأنه من شدة خفقانه كأنما صعد للحنجرة مع الصمت المطبق: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾[3].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الجاثية، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

(٣) سورة غافر، الآية: ١٨.

وثمة آيات أخرى كثيرة تصف الذعر الشديد، وذهول الناس في ذلك اليوم..

ولا يقطّع نياط القلب مثل علمنا بأن هذه الأحوال التي وصفها كتاب الله لا يفصل بيننا وبينها إلا مجيء ملك الموت في الساعة المقدرة اليوم أو غداً، ومع ذلك لا زالت الغفلة تكبلنا..!

وفي ستة مواضع من كتاب الله وصف الله ذلك اليوم بأنه «بغتة» أي مفاجئ، كما قال الله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً ﴾[1]، ﴿ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةً ﴾[2]، ﴿ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾[3]، ﴿ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةً فَتَبۡهَتُهُمۡ ﴾[4]، ونحوها..

فيا ليت شعري على أي حالٍ سيباغتنا ذلك اليوم؟!

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٧.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٤٠.

واللافت في الأمر -أيضاً- أن علماء الإلهيات يؤكدون أن القرآن أكثر من ذكر اليوم الآخر بما لا يوجد مثله في الكتب السماوية، كما يقول أبو العباس ابن تيمية: «**وفي القرآن من ذكر المعاد وتفصيله، وصفة الجنة والنار، والنعيم والعذاب؛ ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل**»[1].

بل إن الله تعالى تمدَّح بتعظيم نفسه بإلقاء الوحي على الرسل لكي ينبهوا الناس على اليوم الآخر، فجعل الله من أعظم وظائف الوحي تذكير الناس بقرب لحظة لقاء الله، كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[2].

والله إنه لأمرٌ محرج أن يكون الله يوضح لنا أن من أغراض الوحي تنبيه الناس على لقائه، ونحن غافلون عن هذه الغاية القرآنية العظيمة.

هل نحن حين نتلو القرآن نستحضر أن من مقاصد القرآن تعميق استحضار اليوم الآخر في النفوس؟ هل منحنا الآيات التي تصور مشاهد اليوم الآخر منزلتها التي تستحقها؟

---

(١) الجواب الصحيح: ٢/٧٩.

(٢) سورة غافر، الآية: ١٧.

حين ننشغل بدنيانا ونغفل عن هذا اليوم القادم، فنحن لا نغفل عن يوم عادي أو يوم مهم فقط، إننا نغفل عن يوم وصفه كتاب الله بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

هذا الإطراق، وخشوع الأبصار، وتنكيس الرؤوس، وفراغ القلوب من الرعب، والجثو على الركب، في ذلك اليوم العصيب، ما سببه؟

لماذا تتيبس الأعصاب وتتجمد الأطراف؟

لا شك أن ذلك بسبب هول العذاب، والخجل من الأعمال، ولكن ثمة - أيضاً - أمر آخر أعظم من ذلك كله، وهو جلال وهيبة الله تعالى إذ يتجلى لذلك اليوم.

سبب الإطراق إدراك الجميع لـ«عظمة الله»، إنه الرحمن -جل وعلا- تخشع له الأصوات في ذلك اليوم المهول: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢٧.

(٢) سورة طه، الآية: ١٠٨.

وقال جل شأنه عن ذلك اليوم: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾[1].

ومعنى عنت: أي خضعت وذلّت واستسلمت، كما قال أهل التفسير.

حسناً، كلما استطاع المسلم التخلص من الضباب الكثيف الذي يصنعه الانهماك في الدنيا، ومنح نفسه ساعة تأمل في لحظة صفاء، وتذكر قرب لقاء الله، فإنه سيتفاجأ بحيوية جديدة تدب في نفسه، سيشعر كأنما قام قلبه باستحمام إيماني يزيل عنه العوالق والأوضار، ستتغير نظرته لكثير من الأمور..

ومن أهم ما يصنعه استحضار لقاء الله في النفوس الزهد في الفضول، فضول النظر، وفضول السماع، وفضول الكلام، وفضول الخلطة، وفضول النوم، وفضول تصفح الإنترنت، ونحوها، فيصبح المرء لا ينفق نظره وسمعه ووقته إلا بحسب الحاجة فقط..

ومما يصنعه استحضار لقاء الله في النفوس الإقبال على القرآن، فيعيد المثقف المسلم صياغة شخصيته الفكرية

---

(١) سورة طه، الآية: ١١١.

على ضوء القرآن، لأن الله في هذا اللقاء العصيب القادم سيحاسبنا على ضوء هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦ ﴾[2].

وإنـه والله لغاية الخسارة أن يبني المثقف المسلم شخصيته من كتب فكرية منحرفة، هل رأيت أخسر ممن يترك النبع ويترشف المستنقعات؟!

ومما يصنعه استحضار لقاء الله في النفوس إقبال المرء على نفع إخوانه المسلمين في دينهم ودنياهم.

في دينهم مثل: تعليم الناس معاني كلام الله ورسوله، وفي دنياهم مثل: حاجات المسلمين الطبية والهندسية والسياسية والاقتصادية ونحوها.

---

(١) سورة طه، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

(٢) سورة القصص، الآيتان: ٦٥، ٦٦.

وأي تهييج لهذه المنزلة الإيمانية العظيمة وهي نفع المسلمين أشرفَ من قول النبي ﷺ في صحيح مسلم: **«من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»**[1].

إنه الله في عونك ما دمت في عون أخيك، أرأيت كيف يستجلب عون الله؟!

فمن استحضر لقاء الله هل يستطيع أن يتجاهل دماء إخوانه النازفة في كثير من بلدان المسلمين؟ هل تستطيع أن تنسى مسؤوليتك أمام الله وأنت تتذكر صور الأشلاء واستغاثات الثكالى وأنين الأطفال في كثير من بلدان المسلمين المنكوبة؟!

ومما يصنعه كثرة استحضار لقاء الله الاستخفاف بالجاه في عيون الخلق، والتعلق بالجاه عند الله جل وعلا، وماذا يغني عنك ثناء الناس وأنت تعرف من خطاياك ما لو علموه لما صافحوك؟!

---

(١) صحيح مسلم، ٧٠٢٨.

من وضع بين عينيه لقاء الله، والمنزلة عند الله، وكيف ستبدّل الآخرة من منازل الناس بشكل انقلابي كما قال تعالى عن الآخرة ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾[1]، من استحضر ذلك كله؛ علم رخص الشهرة والظهور والرياسة، وكسد سوقُها في قلبه، وأيقن أنها أهدافٌ في غاية التفاهة، بحيث لا تستحق دقيقة جهد، فضلاً عن أن يذهب عناء السنين في العلم والعمل وجمع الكتب وعناء الليالي لأجل مديح الناس..!

يا الله، كيف يدع الإنسان جبار السموات والأرض، وينصرف قلبه لمخلوق ضعيف مثله يتوسل مديحه ويتزين لثنائه؟!

وأين الله من الناس؟!

وصيتي لنفسي وأخي القارئ أنه: كلما اصطدت نيتك وقد التفتت إلى المخلوقين فتذكر مباشرة قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

(١) سورة الواقعة، الآية: ٣.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥٩.

فضل الصخور على القلوب

نعرف جيداً من خلال تجاربنا اليومية أن إيماننا في قلوبنا يمر بحالات متفاوتة، بل شديدة التفاوت.

تارةً نشعر بدفء الإيمان في قلوبنا يتصاعد، فيرقُّ القلب ويلين ويخفّ ويرفرف، فتنيب النفوس وتذعن، حتى نجد في نفوسنا اندفاعاً لافتاً للعمل الصالح، ونفوراً من المعصية. وتاراتٍ أخرى نشعر بالإيمان في نفوسنا يتبلد، ويفتر، حتى نجد من استثقال الطاعات والتكاسل عنها ما يشعرك أنك مكبل، كأنك تمشي في قيود، تستوعر الخطى.

هذه أحاسيس لا يكاد يخلو أحدنا منها، لكن إلى أي مدى يا ترى يقسو القلب ويتجمد الإيمان فيه؟ ما هي أدنى مراحل يبوسة القلب؟

تخيل ما شئت من هذه المراحل والصفات لقسوة القلب، ثم استمع إلى تصوير القرآن لحالة محزنة مخيفة من حالات قسوة القلب، يقول الله جل وعلا: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[1].

إنه ليس كالحجارة فقط، بل قد يكون كما تصوّر الآية «أشد قسوة»!

بالله عليك! هل تتخيل قلباً أقسى من الصخر؟

بل إن الله تعالى ذكر فضل الحجر على بعض القلوب، في صورة يتصبب المؤمن منها حرجاً! حيث تستكمل الآية التصوير: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

كم هي مقارنة موجعة! الله تعالى يذكر فضل وتميز الصخور على بعض قلوب بني آدم! فيذكر من فضائل الصخور أنها من لينها ومطاوعتها تنشق لينفسح من بين جوانحها الماء المتدفق، أو تهبط وتتردى كأنما خضعت وتذللت..

حتى إن إمام التفسير في زمانه قتادة بن دعامة السدوسي (ت١١٨هـ) لاحظ هذه المقارنة القرآنية بين الصخور وبعض قلوب بني آدم، فعلّق تعليقاً بديعاً قال فيه: **«عَذَر الله الحجارة، ولم يعذر شقيّ بني آدم»**[(١)]!

ولكن ما الذي يحدث إذا قسا القلب؟ ما الآثار التي تستتبع هجوم قسوة القلب؟

الحقيقة أن القلب إذا قسا خسر القدرة على الاتصال بالله سبحانه وتعالى، ومناجاته، والتشرف بالانطراح بين يديه.

وهذه اللحظات التي يتقلب فيها القلب بين يدي الله هي من أرقى وأجمل وألذ لحظات الدنيا..

---

(١) تفسير الطبري: ١٣٦/٢.

بل إن الله تعالى يقدّر على العباد كوارث كونية يريد منهم أن تدفعهم للتعلق بالله ومناجاته والتضرع له، ولكن من ابتلي بقسوة القلب يفلس في الوصول إلى هذا اللحظات الراقية المشرقة، كما يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[1].

أي شؤم لقسوة القلب إذ يتسبب في مضادة أمر الله!

الله يقدّر المرض والمجاعة والحروب والفقر، يريد من العبد أن يرتفع ويتشرف باللجوء إلى الله، والتضرع له، والتمرغ فوق تراب العبودية، وتعفير الوجه بذل الإخبات، ولكن قسوة القلب تكبل العبد فلا يصْعد لهذه المنزلة العظيمة.

تأمل مرةً أخرى الآية الكريمة: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

وهل يقف أمر (قسوة القلب) عند الحرمان من مقامات الإيمان الرفيعة كالتضرع لله؟

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٤٢، ٤٣.

لا، طبعاً، بل هناك ما هو أفظع من ذلك، وهو أن المرء إذا قسا قلبه فقصّر في طاعة الله، بدأ يلتمس لنفسه المخارج بتأويل النصوص لتوافق هواه، فتراه يدس رأسه في مسائل الخلاف يبحث عن القول الذي يوافق تقصيره، ويحني رماح النصوص كي لا تصيبه، أو يلوي أعناقها لتعزز مساره، كما قال الله تعالى في وصف تأثير قسوة القلب على تحريف النصوص: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[1].

ولذلك فإن الله بحكمته البديعة جعل في النصوص مواضع مشتبهة، ومكّن الشيطان من الإغواء كوناً وقدراً، فيلقي الشيطان أمام قلوب الناس لذائذ الشبهات، وكلاليب الحيل والمكايد، فلا يصبر ويسلّم للنصوص ويترك مواضع الاشتباه إلا من رقت قلوبهم بالإيمان، ولا يطيش عقله أمام هذه النصوص فيتخذها تُكأة لتقصيره إلا من قسا قلبه، كما قال الله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[2].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٣.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥٣.

وقد يتصور كثيرٌ من الناس أن (قسوة القلب) مجرد سبب للمعصية، ويغفل الكثيرون عن أن (قسوة القلب) قد تكون نتيجة وعقوبة من الله على المعصية ذاتها، فيعاقب الله العبد إذا عصاه بأن يسلط عليه قسوة القلب، كما قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾[1].

وكون الله سبحانه يعاقب على الذنب بالذنب، وينكّل بالخطيئة على الخطيئة، هذا معنى له نظائر في كتاب الله كقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾[2].

وقول الله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[3].

وقول الله عز وجل: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.

(٣) سورة الصف، الآية: ٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠.

فانظر كيف ينتقم الله من الزيغ بالزيغ، ويعذب على مرض القلب بزيادته، ويجازي على الذنب بضعف العبد في حالات الشدة؟! وهكذا فإن الله يعاقب على قسوة القلب إذا لم يداوها المرء بمزيد من قسوة القلب، كما قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾[1].

ربما لا يختلف مسلمان في بشاعة قسوة القلب، ولكن السؤال الذي يسبق ذلك: كيف تقع (قسوة القلب)؟ كيف ينزف القلب إيمانه حتى يتيبس ويتدهور في هذه الحالة المرضيّة؟

الحقيقة أن قسوة القلب هي نتيجة طبيعية للمعاصي والخطايا بشكل عام، ولكن ثمة عامل له خصوصية في إنتاج قسوة القلب، وهو بكل اختصار: (بُعْدُ العهد عن ذكر الله)..

لا أعرف سبباً يجفف القلب ويقسيه مثل الغفلة عن ذكر الله، ولا أعرف سبباً يحيي القلب وينيره فوراً مثل ذكر الله، وقد جاءت الإشارة في كتاب الله إلى هذه العلاقة بين بعد العهد عن الذكر وقسوة القلب.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٣.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[1].

فانظر كيف أن طول الأمد، وبعد العهد عن كتاب الله، أورثهم قسوة قلوبهم، وتنبيه القرآن لهذه الظاهرة التي وقعت في الأمم السابقة ليس للمتعة والتسلية التاريخية، وإنما لكي نتحاشاها ونستفيد من الدرس..

ولاحظ هذه العلاقة -أيضاً- بين بعد العهد عن الذكر وقسوة القلب في قول الله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[2].

والمعنى كما رجحه شيخ المفسرين ابن جرير الطبري - رحمه الله - أن قلوبهم قست ببعدهم عن ذكر الله، كما يقول ابن جرير: «**يقول تعالى ذكره: فويل للذين جفت قلوبهم ونأت عن ذكر الله وأعرضت**»[3].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٦.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

(٣) تفسير الطبري: ٢٠/١٩٠.

حسناً، دعنا الآن نحاول أن نستجمع عناصر الصورة التي رسمها القرآن عن ظاهرة (قسوة القلب) : أخبرنا الله أن بعض القلوب أشد قسوة من الحجارة: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[1].

وأن قسوة القلب عقوبة ونكالٌ يرسله الله على من عصاه: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾[2].

وأن قسوة القلب تحرم المرء من التضرع لله: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[3].

وأن القلوب القاسية هشة تنهار أمام الفتن: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾[4].

وأن قسوة القلب تنتج بسبب بعد العهد بالذكر ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٤٣.

(٤) سورة الحج، الآية: ٥٣.

ثم يختتم المشهد بالتهديد الإلهي المروع لمن قسا قلبه عن ذكر الله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1].

إذا تمعن الباحث في هذا المشهد الذي شكّله القرآن حول ظاهرة (قسوة القلب) أدرك فوراً أن (قسوة القلب) يجب أن لا تكون شيئاً هامشياً في حياتنا، لقد منح القرآن اهتماماً واضحاً لهذه الظاهرة، فوصفها وشرح آثارها وأسبابها، وهدد صراحة من وقع فيها.

هل من اللائق أن يكون القرآن كثف الحديث عن (قسوة القلب) وآثاره المدمرة ثم تكون قسوة القلب مجرد حدث عابر في حياتنا، أو حالات عرضية لا نأبه لوقوعها وارتفاعها؟!

ما أكثر ما مررنا بحالات من (قسوة القلب)! وبكل صراحة: ماذا لو توفانا الله - لا سمح الله - على هذه الحالة؟ ماذا لو لقينا خالق السماوات والأرض ونحن في حالة (قسوة القلب) التي قال عنها: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[2]؟

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

لا خيار لنا في اتخاذ القرار العاجل والمبادرة بمداواة قلوبنا من هذه القسوة التي تداهمها. وقد أثبتت التجارب أن أنفذ الأدوية وأسرعها في معالجة قسوة القلب هو تلاوة وتدبر كلام الله سبحانه وتعالى..كما في الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[1].

وأخبرنا الله عن الأنبياء كيف يتأثرون بكلام الله، وتسيل عبراتهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ (٥٨)﴾[2].

وأخبرنا الله عن بعض الصالحين من أهل الكتاب كيف تغرورق محاجرهم بالدموع إذا تلي عليهم القرآن: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾[3].

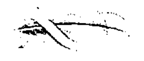
---

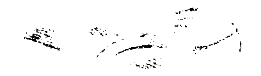
(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٢) سورة مريم، الآية: ٥٨.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٨٣.

فإذا رأى متدبر القرآن كيف يصف الله القرآن بأنه تقشعر منه جلود المؤمنين، وتلين قلوبهم له، وكيف وصف الله سلسلة الأنبياء، وصالحي أهل الكتاب إذ استعبروا وذرفت مآقيهم الدموع خشيةً لكلام الله، أدرك أن هذا القرآن أنجع وسيلة تهز القلوب وتطير بها عن منحدرات القسوة وكهوف الرين..





الساعة الخامسة والسابعة صباحاً

ثمة مشهد لا أمل من التأمل فيه، ولا أمل من حكايته لأصحابي وإخواني، وهو ليس مشهداً طريفاً، بل والله إنه يصيبني بالكمد والبث حين أتذكره..

جوهر هذا المشهد هو بكل اختصار «المقارنة بين الساعتين الخامسة والسابعة صباحاً» في مدينتي الرياض التي أعيش فيها، أقارن تفاوت الحالة الشعبية بين هاتين اللحظتين اللتين لا يفصل بينهما إلا زهاء مئة دقيقة فقط..

في الساعة الخامسة صباحاً، والتي تسبق تقريباً خروج صلاة الفجر عن وقتها، تجد طائفةً موفقةً من الناس توضأت،

واستقبلت بيوت الله، تتهادى بسكينة لأداء صلاة الفجر، إما تسبح، وإما تستاك في طريقها، ريثما تكبر ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾[1].

بينما أمم من المسلمين أضعاف هؤلاء ما يزالون في فرشهم، بل وبعض البيوت تجد الأم والأب يصلون ويدَعون فتيان المنزل وفتياته في سباتهم..

حسناً، انتهينا من مشهد الساعة الخامسة، لننتقل الآن لمشهد الساعة السابعة..

ما إن تأتي الساعة السابعة – والتي يكون وقت صلاة الفجر قد خرج – وبدأ وقت الدراسة والدوام، إلا وتتحول الرياض وكأنما أطلقت في البيوت صافرات الإنذار، حركة موّارة، وطرقات تتدافع، ومتاجر يرتطم الناس فيها داخلين خارجين يستدركون حاجيات فاتتهم من البارحة، ومقاهٍ تغص بطابور المنتظرين يريدون قهوة الصباح قبل العمل..

أعرف كثيراً من الآباء والأمهات يودّون أن أولادهم لو صلوا الفجر في وقتها، يودون فقط، لكن لا شيء يتجاوز ذلك،

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٦.

بمعنى لو لم يؤدّها أبناؤهم فلن يتغير شيء، لكن لو تأخر الابن «دقائق» فقط، نعم أنا صادق فيما أقول، لو تأخر الابن دقائق فقط عن موعد الذهاب لمدرسته فإن شوطاً من التوتر والانفعال يصيب رأس والديه، وربما وجدت أنفاسهم الثائرة وهم واقفون على فراشه يصرخون فيه بكل ما أوتوا من الألفاظ المؤثرة لينهض لمدرسته.

هل هناك عيب أن يهتم الناس بأرزاقهم؟ هل هناك عيب بأن يهتم الناس بحصول أبنائهم على شهادات يتوظفون على أساسها؟

لا، طبعاً، بل هذا شيء محمود، ومن العيب أن يبقى الإنسان عالة على غيره..

لكن هل يمكن أن يكون الدوام والشهادات أعظم في قلب الإنسان من الصلاة؟!

لاحظ معي أرجوك: أنا لا أتكلم الآن عن «صلاة الجماعة» والتي هناك خلاف في وجوبها (مع أن الراجح هو الوجوب) ، لا، أنا أتكلم عن مسألة لا خلاف فيها عند أمـة محمد ﷺ طيلة خمسة عشر قرناً،

لا يوجد عالم واحد من علماء المسلمين يجيز إخراج الصلاة عن وقتها، بل كل علماء المسلمين يعدون إخراج الصلاة عن وقتها من أعظم الكبائر، وبعضهم يعدها ناقضاً من نواقض الإسلام..

بالله عليك، أعد التأمل في حال ذينك الوالدين اللذين يلقيان كلمة عابرة على ولدهم وقت صلاة الفجر: «فلان! قم.. صل.. الله يهديك!»، ثم يمضون ببرود لحال شأنهم، لكن حين يأتي وقت «المدرسة والدوام» تتحول العبارات إلى غضب مزمجر وقلق منفعل لو حصل وتأخر عن مدرسته ودوامه..

بل هل تعلم يا أخي الكريم أن أحد الموظفين قال لي مرة: إنه منذ عشر سنوات تقريباً لم يصل الفجر إلا مع وقت الدوام، يقولها بكل استرخاء، مُطبِق على إخراج صلاة الفجر عن وقتها منذ عشر سنوات..!

وقال لي مرة أحد الشباب: إنهم في استراحتهم التي يجتمعون فيها، وهم ثلة من الأصدقاء من الموظفين من طبقة متعلمة، قال لي: إننا قمنا مرة بمكاشفة..

من فينا الذي يصلي الفجر في وقتها؟ فلم نجد بيننا إلا واحداً من الأصدقاء فقط، وقال لهم: إن زوجته كانت تقف وراءه بالمرصاد حتى ينهض ويغادر الباب، هذه هي الزوجة المباركة على زوجها وبيتها..

يا الله، هل صارت المدرسة -التي هي طريق الشهادة- أعظم في قلوبنا من عمود الإسلام؟!

هل صار بداية وقت الدوام -الذي سيؤثر على نظرة رئيسنا لنا- أعظم في نفوسنا من ركن يترتب عليه الخروج من الإسلام؟

هذه المقارنة الأليمة بين الساعة الخامسة والسابعة صباحاً هي أكثر صورة محرجة تكشف لنا كيف صارت الدنيا في نفوسنا أعظم من ديننا.

بل وانظر إلى ما هو أعجب من ذلك، فكثير ممن يخرج صلاة الفجر عن وقتها إذا تأخر في دوامه بما يؤثر على وضعه المادي يحصل له من الحسرة في قلبه بما يفوق ما يجده من تأنيب الضمير إذا أخرج الصلاة عن وقتها!

كلما تذكرت كارثة الساعة الخامسة والسابعة صباحاً، وأحسست بشغفنا بالدنيا وانهماكنا بها بما يفوق حرصنا على الله ورسوله والدار الآخرة، شعرت وكأن تالياً يتلو علي من بعيد قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾[1].

ماذا بقي من شأن الدنيا لم تشمله هذه الآية العظيمة؟!

هل بلغنا هذه الحال التي تصفها هذه الآية؟!

ألم تصبح الأموال التي نقترفها، والتجارة التي نخشى كسادها، أعظم في نفوسنا من الله ورسوله والدار الآخرة؟!

كيف لم يعد يشوّقنا وعد ربنا لنا في سورة النحل إذ يقول: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٦.

بكل صراحة، حين تتذكر شخير الساعة الخامسة فجراً، في مقابل هدير السابعة صباحاً، فأخبرني هل تستطيع أن تمنع ذهنك من أن يتذكر قول الله تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

حين تقارن بين مشهد الغارقين في فرشهم وقت صلاة الفجر، واللاهثين في الطرقات وقت بداية الدوام، ألا يهجم عليك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾[2].

إذا تأملت هذا الشغف بحطام الدنيا، والتفريط في أعظم أمور الآخرة، فتذكر نصيحة أهل العلم التي رواها القرآن لنا مثمناً إياها، مفخماً لشأنها، حين قالوا لقومهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾[3].

وتأمل تفريط كثير من الآباء والأمهات في صلاة ابنهما، وتأمل تفريط أحد الزوجين في إيقاظ الآخر للصلاة،

---

(١) سورة الأعلى، الآيتان: ١٦، ١٧.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢٧.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨٠.

ثم اعرض هذا المشهد الاجتماعي أمام ثناء الله على نبيه إسماعيل ﷺ حيث يقول: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾[1].

تأمل كيف يمدح الله إسماعيل بكونه «يأمر أهله بالصلاة»، وقارن ذلك بالسلبية المتزايدة هذه الأيام بين أهلٍ يسكنون بيتاً واحداً، لا يأمر المصلي فيه من لا يصلي!

وتأمل كيف ينقل الله لنا كيف يأمر لقمان ابنه بالصلاة: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[2].

بل إن الله أمر نبيه محمداً ﷺ أن يأمر أهله بالصلاة فقال: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾[3].

ضم هذه النظائر إلى بعضها: مدح الله لإسماعيل ﷺ بأمره أهله بالصلاة، وأمر لقمان لابنه بالصلاة، وأمر الله لنبيه محمد ﷺ بأن يأمر أهله بالصلاة،

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٥٤، ٥٥.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٧.

(٣) سورة طه، الآية: ١٣٢.

ثم تذكر هذه اللامبالاة المتبادلة التي صارت تغزو بيوتنا للأسف..

قال لي مرةً أحد من أصابتهم شُعب التغريب: «المشايخ يمارسون التهويل في تصوير الخلل الديني في مجتمعنا، ولو ركزوا على الكبائر لعلموا أن أمورنا الدينية جيدة، والمشكلة عندنا في دنيا المسلمين فقط»..

والحقيقة أنني كلما وضعت عبارة هذا المسكين على كفة، ووضعت الساعتين الخامسة والسابعة صباحاً على كفة، طاشت السجلات، وصارت عبارته من أتفه الدعاوى..

المقارنة بين مشهدي الساعة الخامسة والسابعة صباحاً هي من أهم المفاتيح لمن يريد أن يعرف منزلة الدنيا في قلوبنا مقارنة بدين الله..

لا أتحدث عن لحية، ولا معازف (برغم أنها مسائل مهمة)، وإنما أتحدث الآن عن رأس شعائر الإسلام، إنها «الصلاة»! التي قبضت روح رسول الله ﷺ وهو يوصي بها أمته ويكرر «الصلاة.. الصلاة!!» وكان ذلك آخر كلام رسول الله كما يقول الصحابي راوي الحديث..

بل هل تدري ما هو أطم وأبشع من ذلك كله..؟ أن كثيراً من أهل الأهواء الفكرية يرون أن الحديث عن الصلاة هو شأن الوعاظ والدراويش والبسطاء، أما المرتبة الرفيعة عندهم فهي ما يسمونه «السجال الفكري، والحراك الفكري»، وحقيقة الأمر أن كثيراً منها ترهات آراء يتداولونها في مقاهي الفراغ أو صوالين الإنشاء..

يسمون الشبهات، وتحريف النصوص الشرعية، والتطاول على أئمة أهل السنة: (حراكاً فكرياً)، يا ضيعة الأعمار !

الصلاة التي عظمها الله في كتابه، وذكرها في بضعة وتسعين موضعاً، تصبح شيئاً هامشياً ثانوياً في كثير من الخطابات النهضوية والتنموية والإصلاحية، ألا لا أنجح الله نهضة وإصلاحاً تجعل الصلاة في ذيل الأولويات..

المهم، لنعد لموضوعنا، فمن أراد أن يعرف منزلة الدنيا في القلوب مقارنة بدين الله فلا عليه أن يقرأ النظريات والكتابات والأطروحات، بل عليه فقط أن يقارن بين الساعتين «الخامسة والسابعة صباحاً» وسيفهم بالضبط كيف صارت الدنيا أعظم في نفوسنا من الله جل جلاله..

وتأمل يا أخـي الكريم في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[1].

بل تأمل في العقوبة التي ذكرها جماهير فقهاء المسلمين لمن أخرج الصلاة عن وقتها حيث يصور هذا المذهب الإمام ابن تيمية، كما جاء في فتاواه يرحمه الله: «وسئل شيخ الاسلام ابن تيمية: عن أقوام يؤخرون صلاة الليل إلى النهار، لأشغال لهم من زرع أو حرث أو جنابة أو خدمة أستاذ، أو غير ذلك، فهل يجوز لهم ذلك؟

فأجاب: «لا يجوز لأحد أن يؤخر صلاة النهار إلى الليل، ولا يؤخر صلاة الليل إلى النهار لشغل من الأشغال، لا لحصد، ولا لحرث، ولا لصناعة، ولا لجنابة، ولا لخدمة أستاذ، ولا غير ذلك؛ ومن أخرها لصناعة أو صيد أو خدمة أستاذ أو غير ذلك حتى تغيب الشمس وجبت عقوبته، بل يجب قتله عند جمهور العلماء بعد أن يستتاب، فإن تاب والتزم أن يصلي في الوقت ألزم بذلك،

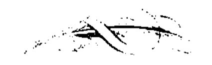
(١) سورة مريم، الآية: ٥٩.

وإن قال: لا أصلي إلا بعد غروب الشمس لاشتغاله بالصناعة والصيد أو غير ذلك؛ فإنه يقتل»[1].

هل لازال هناك من يقول: «إن مشكلتنا هي أننا عظمنا الدين وأهملنا دنيا المسلمين».

بل هل قائل هذا الكلام جاد؟! وأي دين بعد عمود الإسلام؟!

حين تجد شخصاً من المنتسبين للطوائف الفكرية المعاصرة يقول لك: (مشكلة المسلمين في دنياهم لا في دينهم) فقل له فقط: قارن بين الساعة الخامسة والسابعة صباحاً وستعرف الحقيقة.



---

(١) فتاوى ابن تيمية: ٢٨/٢٢.



السجود بين السهام

تناولنا في الفصل السابق مشهد الساعة الخامسة والسابعة صباحاً، دعنا الآن نوسّع الأمر إلى مشاهد اجتماعية شبيهة بهذا المشهد، سنحاول أن نلامس بعض صور الحياة المتكررة المتعلقة بذات الإشكالية، ثم ننتقل إلى تحليل هذه القضية في ضوء القرآن..

سأروي لك أحداثاً منفصلة أُخبِرت بها، أو رأيت بعضها، ثم نضعها تحت مجهر القرآن كما هو الغالب على وظيفة هذه الرسالة التي بين يديك..

زارني مــرةً طالــب في جامعــة الملــك سعــود، في المستــوى الثالــث، وكان لديــه بعضــ الإشكاليــات يريــد أن يناقشهــا، وأثنــاء حديثــه قلــت لــه: أريــد أن أسألك سؤالاً:

ماهي الإشكاليات الفكرية التي يتساءل حولها طلاب الجامعة وتؤرقهم؟

تبسم هذا الشاب، وقال لي: هل تريد أن أحدثك بصراحة؟

قلت: نعم.

قال: طلاب الجامعة الذين أراهم ليس لديهم أصلاً أي اهتمام بالإشكاليات الفكرية التي تعنيكم! ولا ألقوا بالاً لهذه القضايا التي تختلف حولها النخب، الطلاب الذين أراهم إذا أردت الصراحة ينتشر بينهم «التهاون في الصلاة»!

ثم أخذ هذا الشاب يتكلم بحرقة، مكسوفاً، متهضّم الوجه، والله إنه يتوقف عن الحديث كأنه لا يجد العبارة الوافية بأحاسيسه..

أحد الأقـارب يحدثني قبل زمن يسير يقول: كنت ذاهباً إلى الصندوق العقاري لأراجع في معاملةٍ لي، فلما حضر وقت الصلاة تقدم شخص عليه سيماء التدين، ومدّ سجادة طويلة، وأقام الصلاة، فاجتمع الموجودون وصلوا وراءه، لكن الذي لفت انتباهي أن خمسة أو ستة أشخاص بقوا في أحد زوايا الصالة ولم يصلوا معنا!

صديق آخر يحدثني ويقول: كنت مرةً في سوق، من الأسواق المركزية الكبرى (هايبرماركت)، يقول: حضر وقت الصلاة، فاستعجلت نفسي للخروج، فأغلقت البوابات على المتسوقين، واكتشفت أن عدداً كبيراً من المتسوقين بقوا يتجولون بكل انسجام، وكأن شيئاً لم يحدث، ولم يحرصوا على الخروج من السوق لكي يصلوا، واكتشفت أن هذا الإجراء طبيعي، وأنه في كل الصلوات تقريباً يغلق السوق ويبقى عدد من المتسوقين يتبضعون بكل أريحية!

وهـذه واقـعـةٌ أخـرى وقعت لي شخصياً، فقد كنت مـرةً في الطائرة، عائداً للسعودية حفظها الله،

والطائرة تغص بأناس عليهم سيماء أهل البلد، وحضر وقت صلاة الفجر، ولم يتبق إلا زمن قصير وتشرق الشمس، فاجتمع عدد من المسافرين وصلينا الفجر، لكن الذي أدهشني أن العشرات من المسافرين لم يغادروا مقاعدهم للصلاة؟!

برغم أن المصلى بجانبهم، وليس لديهم أي ارتباطات أو مهام، وسيخرج وقت الصلاة قريباً ! ومع ذلك عدد كبير من المسافرين مسترخٍ فوق المقعد وكأن شيئاً لم يقع..

كنا نتجاذب أطراف الحديث حول هذه الظواهر المؤلمة مع أحد الأقارب ورويت له بعض الوقائع التي بذهني، فقال لي: دعني أخبرك بمشهد مماثل، يقول: أنا حضرت عدة مباريات مهمة، ويجتمع في الملعب ما لا يقل عن خمسين ألف متفرج، وبعضهم يأتي من العصر ليحجز مقعداً، ومع ذلك يأتي وقت صلاة المغرب والعشاء، ولا ينزل إلا عدد محدود ويبقى الآلاف في مدرجاتهم..

هذه بعض الظواهر والمشاهد الاجتماعية الأليمة في التعامل مع عمود الإسلام!

دعنا الآن ننتقل إلى تحليل هذه المشاهد في ضوء القرآن، ونتناول المنزلة التي وضعها الله للصلاة، ما هي المرتبة التي أنزل الله الصلاة فيها؟

سنحاول أن نقف معاً أيضاً على بعض الشواهد الشرعية:

تأمل كيف أمر الله المجاهدين بصلاة الجماعة، وهم على خط النار، وتحت مخاطر القصف، وشرح القرآن لهم كيف يصلونها؟ برغم ما تستلزمه حالتهم من ترك بعض شروط وواجبات الصلاة المعروفة، وكثرة الحركة، وملاحظة العدو، إلخ ، ومع ذلك لم يأذن لهم في ترك صلاة الجماعة!

إنهم يصلون جماعةً بين سنابك الخيل، وتحت وقع السهام، فكيف يبيح الله تعالى لرجل ينام فوق فراش وثير، تحت أجهزة التكييف الحديثة أن يدع الصلاة؟ بأي منطق يجوز هذا؟

يقول الله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾[1].

وجاء الأمر بالصلاة في آية مركبة صياغتها بطريقة شديدة الترهيب، حيث أشارت الآية إلى وصف من يترك الصلاة، فأمرت بالصلاة وأشارت للضد، حتى إن ابن حجر في فتح الباري قال عن هذه الآية أنها: «**من أعظم ما ورد في القرآن في** «**فضل الصلاة**» بسبب هذا الاقتران الترهيبي، حيث يقول الله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣١.

فإذا كان الله يجعل ترك الصلاة من أفعال المشركين، فكيف يرضى المسلم لنفسه أن يكون بهذه المنزلة؟!

ويتصور كثيرٌ من الناس أنه بمجرد أن يذهب إلى الصلاة، حتى لو كان متأخراً دوماً، ويذهب إليها متثاقلاً؛ فقد ارتفع عنه الوعيد والتهديد الذي جاء في القرآن، ولا يعلم هذا المغرور أن الله ذكر عن المنافقين أنهم يصلون، وذكر رسول الله ﷺ أن المنافقين يصلون، ولكن انظر بالله عليك كيف وصف الله صلاة المنافقين، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾[1].

ويقول الله تعالى أيضاً: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾[2].

ووصف النبي ﷺ سلوك المنافق في تعامله مع الصلاة فقال: **«تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان؛ قام فنقرها أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلا»**[3].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٤.

(٣) رواه مسلم: ٦٢٢.

فانظر في الآيتين السابقتين كيف وصف الله المنافق بأنه يأتي للصلاة ولكن بتكاسل!

ووصف رسول الله ﷺ المنافق بأنه يصلي ولكنه يماطل ويؤجل حتى يتماس مع خروج الوقت فينقرها عاجلاً.

قال الإمـام ابن تيمية: «**جعل النبي ﷺ صلاة المنافقين التأخير، وقلة ذكر اسم الله سبحانه**»[1].

وقال ابن تيمية أيضاً: «**فجعل هذه صلاة المنافقين؛ لكونه أخرها عن الوقت، ونقرها**»[2].

ألا يخشى المسلم المتكاسل في الصلاة، المستثقل لها، المستعجل دوماً في أدائها، أن يكون طيلة حياته إنما كان يمارس «صلاة المنافق»! كم ستكون صدمة فاجعة إذا رأى صلاته عند لقاء الله محسوبة عليه من «صلاة المنافقين»، فتكون وبالاً وهو يظنها النجاة؟!

والكفار وهم يساقون إلى جهنم -والعياذ بالله- يشنع عليهم بتركهم للصلاة! كما قال الله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩﴾

---

(١) الفتاوى، ٢٢/٢٤.

(٢) الفتاوى: ٧/٦١٥.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾[1].

وتمعّن كيف جعل الله الصلاة «تصوغ أخلاقنا»! إنها ليست مجرد حركات وسكنات وألفاظ، بل إنها تربّينا، إنها تهذّب سلوكياتنا، كما وصف الله الصلاة بقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[2].

ولذلك فإن المرء إذا كان متهتك الأخلاق فهو لم يصلّ حقيقةً، وإن زعم أنه يصلي، ولذلك قال الإمام ابن تيمية: «**فإن الصلاة إذا أتى بها كما أُمر نهته عن الفحشاء والمنكر، وإذا لم تنهه دل على تضييعه لحقوقها**»[3].

ومن عجائب عبودية الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- أنهم لم يكونوا يعتنون بإقامة الصلاة فقط، بل كانوا يلجؤون إلى الله ويتضرعون إليه أن يعينهم ويمدهم ويقويهم على الصلاة.

---

(١) سورة القيامة، الآيات: ٢٩-٣٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٣) الفتاوى: ٢٢/٦.

الكثير منا حين يدعو يسأل الله أن يحقق له آمالاً معينة في الدنيا أو الآخرة، لكن القليل منا من يتفطن إلى سؤال الله العون على العبادات العظيمة..

تأمل لجوء وتضرع خليل الله إبراهيم إذ قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

ومن عجائب منزلة الصلاة أن كل العبادات شرعها الله في الأرض عبر طرائق الوحي، إلا الصلاة فإنه عرج برسول الله ﷺ قبل الهجرة بثلاث سنوات، حتى سمع فرضيتها من الله جل جلاله مباشرة، وقد روى ﷺ ذلك فقال: **«عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، قال: فرجعت بذلك حتى أمر بموسى، فقال موسى - عليه السلام: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة. قال لي موسى - عليه السلام: فراجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك.**

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٣٩، ٤٠.

قال: فراجعت ربي فوضع شطرها. فرجعت إلى موسى - عليه السلام - فأخبرته. قال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعت ربى فقال: «هي خمس، وهي خمسون، لا يبدل القول لدي». فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت: قد استحييت من ربي»[1].

وفي روايـة للبخاري أن الله تعالى قال: **«إني قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي، وأجزي الحسنة عشرا»**[2].

وتلاحظ أن الله تعالى هو الذي تولى فرضها بنفسه، قال الإمام ابن تيمية: **«والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج»**[3].

فلم تفرض شريعة من الله لنبيه بلا واسطة إلا الصلاة فيما نعلم.

فهذا الوضع الذي اختاره الله لتشريع الصلاة، بأن تشرع كل العبادات في الأرض بطرائق الوحي المعروفة،

---

(١) البخاري: ٣٤٩، مسلم: ٤٣٣.

(٢) البخاري: ٣٢٠٧.

(٣) فتاوى ابن تيمية: ٤٢٨/٣.

إلا الصلاة، يعرج برسول الله إلى موضع يسمع فيه (صريف الأقلام)، لا يمكن إلا أن تكون له دلالات عميقة حول منزلة الصلاة وشرفها عند الله..

والصريف هو صوت صرير القلم على اللوح، والأقلام هي التي بيد الملائكة تكتب بها قضاء الأقضية التي يقدرها الله سبحانه وتعالى، والملائكة تكتب الأقدار اليومية: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[1]، وتكتب التقدير الحولي: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾[2]، وتكتب التقدير العمري: «**ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات، فيكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد**»[3].

والمعروف أنه حينما يكون الإنسان في مرض الموت، وسيغادر هذه الدنيا فإنه يوصي بأهم الأمور، فالنبي ﷺ من كمال حرصه على أمته، وهو على فراش الموت أخذ يردد كما روى أبو داود بسند جيد عن علي قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «**الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم**»[4].

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الدخان، الآية: ٤.

(٣) البخاري: ٧٤٥٤.

(٤) أبو داود، ٥١٥٨.

وقد أمر الله ملائكته بالنزول إلى الأرض، ثم العروج إلى السماء، والعكس، في وظائف أمرهم الله بها، من إحصاء أعمال العباد، وغيرها. واللافت أن الوقت الذي عينه الله لملائكته للنزول والعروج مرتبط بأوقات الصلاة! كما في البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون»**[1].

وترى المرء يتكلف أعمالاً صالحة، بصيام أو أضاح أو عمرةٍ أو صدقةٍ ونحوها، ثم يفرط في صلاته فيخسر كل هذه الأعمال، وتذهب عليه هباءً، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ متفطنين لهذا المعنى، كما روى البخاري عن أبي المليح قال: (كنا مع بريدة في غزوة، في يوم ذي غيم، فقال: بكروا بصلاة العصر، فإن النبي ﷺ قال: **«من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»**)[2].

---

(١) سورة البخاري: ٥٥٥.

(٢) سورة البخاري، ٥٥٣.

وتأمل كيف كان النبي ﷺ يوقظ أحبابه لصلاة النافلة في جوف الليل، فكيف بصلاة الفريضة؟!

فقد روى البخاري عن علي بن أبي طالب: «أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ليلةً، فقال لهم: **«ألا تصلون»**»[1].

وقد علّق الطبري على هذه الواقعة تعليقاً بديعاً قال فيه: (لولا ما علم النبي ﷺ من عظم فضل الصلاة في الليل؛ ما كان يزعج ابنته وابن عمه في وقت جعله الله لخلقه سكناً؛ لكنه اختار لهما إحراز تلك الفضيلة على الدعة والسكون، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾[2])[3].

حسناً، هذه بعض الشواهد الشرعية التي تصل بالمرء إلى القناعة التامة بالأهمية المطلقة للصلاة في ميزان الله سبحانه وتعالى، وأنها يجب أن تكون أهم قضية عملية في حياتنا، وإذا تدبر الباحث هذه الشواهد الشرعية،

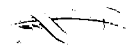
---

(١) البخاري: ٧٤٦٥.

(٢) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٣) فتح الباري: ٣/١١.

ثم أعاد تذكر بعض المشاهد الاجتماعية للتفريط في الصلاة فإنه إن كان نبيلاً محباً لمجتمعه، فلا يملك إلا أن تستبد به الحماسة للنهضة بالمجتمع وتنميته إيمانياً بإحداث ثورة تصحيحية في وضع الصلاة في المجتمع.





السهر المجهول

تتحدث كتب النفس،وبرامج الاستشارات التلفزيونية، والنصائح الطبية، ونحوها، عن مشكلة يسمونها (مشكلة السهر)، ويتكلمون عن أضرارها، ويطرحون لها الحلول وأساليب العلاج.

لكن ثمة نوع آخر من السهر لا أرى له ذكراً بينهم، إنه سهر من نوع خاص، سهر يذكره القرآن ويتحدث عنه كثيرا، وكلما مررت بتلك الآيات التي تتحدث عن هذا السهر شعرت بالخجل من نفسي.

في أوائل سورة الذاريات لما ذكر الله أهوال يوم القيامة، توقف السياق القرآني، ثم بدأت الآيات تلوّح بذكر فريقٍ حصد السعادة الأبدية، واستطاع الوصول إلى (جناتٍ وعيون)، ولكن ما السبب الذي أوصلهم إلى تلك السعادة بين مجاهل تلك الأهوال؟

إنه (السهر المجهول).

تأمل كيف تشرح الآيات سبب وصول ذلك الفريق إلى الجنات والعيون: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

أرأيت، هل استحوذ عليك المشهد؟ لا عليك، شعورٌ طبيعي جداً، تأمل كيف كان سبب سعادتهم أن نومهم بالليل «قليل»!

إذن أين يذهب بقية ليلهم؟

إنه يذهب بالسهر مع الله جل وعلا، ذلك السهر المجهول.

---

(١) سورة الذاريات، الآيات: ١٥-١٧.

ذكرٌ لله، وتضرعٌ وابتهالٌ بين يديه، وتعظيمٌ له سبحانه، وافتقارٌ أمام غناه المطلق جل وعلا، وركوعٌ وسجودٌ وقنوت، هذا غالب الليل، أما القليل منه فيذهب للنوم، القليل فقط بنص الآية: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

وفي سورة الزمر لما ذكر الله عدداً من الآيات الكونية عرض هذا السهر الإيماني بصيغة أخرى، لكن فيها من التشريف ما تتضعضع له النفوس، لقد جعل الله هذا السهر الإيماني أحد معايير (العلم)!

نعم، قيام الليل أحد معايير العلم بنص القرآن، وهذا أمر لا تستطيع بتاتاً أن تستوعبه العقول المادية والمستغربة، لأنها لم تتزك بعد بشكل تام، ولم تتخلص من رواسب الجاهلية الغربية.

لاحظ كيف دلت خاتمة الآية على التشريف العلمي لهذا السهر الإيماني، إذ يقول الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة الذاريات: الآية: ١٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٩.

فلاحظ في هذه الخاتمة كيف جعل الله عدم القنوت آناء الليل مؤشراً على جهل صاحبه، وجعل القنوت آناء الليل مؤشراً على علم القانت.

وقد يقول قائل: لكن كثيراً ممن لا يقنت آناء الليل نرى بالمقاييس المادية المباشرة أن لديه علماً؟

فالجواب: أن القرآن اعتبر العلم بثمرته لا بآلته فقط، وثمرة العلم العبودية لله، فمن ضيع الثمرة لم تنفعه الآلة.

ثم لاحظ كيف وصفت الآيات تنوع العبادة: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾.

بل وصفت الآية أحاسيس ومشاعر ذلك الساهر، فهو من جهة قد اعتراه الوجل من يوم الآخرة، ومن جهة أخرى قد دفعه رجاء رحمة الله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ ، تمتزج هذه المشاعر الإيمانية طوال الليل البهيم بينما الناس حوله هاجعون.

هذا الوصف لأحاسيس المتنسّك آناء الليل توحي بالسكينة الداخلية التي يعيشها، والمعالي التي يفكر فيها، ولذة المناجاة التي يتذوقها..

هل ترى الله تعالى بعظمته وقدسيته سبحانه يصوّر هذا المشهد الإيماني الليلي بلا رسالة يريد إيصالها لنا؟

أليس من الواضح أن الله يريدنا كذلك؟

يريدنا أن نكون قانتين آناء الليل ساجدين وقائمين نحذر الآخرة ونرجو رحمة ربنا..؟

وتذكّر أن الله جعل ذلك معياراً من معايير (العلم)، ألا يشوقنا هذا أن نكون في معيار الله من (أهل العلم)؟

وفي أواسط سورة السجدة ذكر الله المؤشرات الظاهرة التي تدل على إيمان الباطن، حيث استفتحها بقوله: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ الآية، وفي ثنايا تلك المؤشرات صورت الآيات مشهد ذلك المؤمن الصادق، وهو في فراشه، تهاجمه ذكرى الآخرة، فلا يستطيع جنبه أن يسترخي للنوم، تأمل قول الله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[1].

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٦.

أخي الغالي، يشهد الله وحده -وأنا أعلم شدة هذا الاستشهاد- أنني مامررت بهذه الآية إلا أحسست بمقاريض الحرج تنهش أطرافي.

ها قد تصرمت ثلاثة عقود من عمري وأنا لم أتذوق هذا المقام الذي تصوره هذه الآية.

ما مررت بهذه الآية إلا تخيلت أولئك القوم الذين ترسم هذه الآية مشهدهم، وكأني أراهم منزعجين في فرشهم، تتجافى بهم يتذكرون لقاء الله، ثم لم يطيقوا الأمر، وهبُّوا إلى مِيضأتهم، وتوجهوا للقبلة، وسبحوا في مناجاة مولاهم: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾.

صحيحٌ أن هناك آيات كثيرة صورت السهر الإيماني، لكن هذه الآية بخصوصها لها وقعٌ خاص، مجرد تخيل أولئك القوم وهم يتقلبون في فرشهم، ثم يهبّون للانطراح بين يدي الله، في تضرع يراوح بين الخوف من العقوبة على خطاياهم، والرجاء الذي يحدوهم لبحبوحة غفران الله، ثم مقارنة ذلك بأحوالنا وليلنا البئيس،

يجعل الأمر في غاية الحرج، إنهم قومٌ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾.

بل وتأمل في بلاغة القرآن كيف يجعل البيات قياماً ..كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن في سورة الفرقان: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾[1].

إنهم يبيتون، لكنهم يبيتون لربهم في سجود وقيام!

ومن ألطف مواضع السهر الإيماني أن الله جعله من أهم عناصر التأهيل الدعوي في بداية الطريق، الله سبحانه وتعالى لم يجعل أعظم السهر الإيماني في آخر الدعوة النبوية بعد استيفاء التدرج، كلا، بل جعله في أولها، فقال تعالى لنبيه في آيات كادت تستغرق الليل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ ﴾[2].

لاحظ معي أن النبي ﷺ في بداية الدعوة، ومع ذلك يقول له: «﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾[3].

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٤.

(٢) سورة المزمل، الآيتان: ١، ٢.

(٣) سورة المزمل، الآيات: ٢-٤.

وهل كان فعل ذلك مختص برسول الله؟ لا، بل كان أصحابه في أيام غربة الدعوة يصلون معه تلك الصلوات التي تستغرق الليل، يقول تعالى في آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾[1].

السابقون الأولون من أصحاب رسول الله ﷺ خلّد الله قيامهم غالب الليل في كتابه العظيم، أي شرف أعظم من هذا الشرف لأصحاب رسول الله ﷺ؟!

أما نحن، فمنا أقوامٌ ينامون الليل كله ويستثقلون دقائق معدودة ليتهجدوا فيها بين يدي الله.

ومنا أقوامٌ يسهرون الليل كله لكن في استراحات اللهو، ويستكثرون أن يتوقفوا دقائق ليقفوا بين يدي الله.

ومنا أقوامٌ يذهب ليلهم في تصفح شبكة الإنترنت، ومواقع التواصل الاجتماعي، ومشاهدة مقاطع اليوتيوب، وتعليقاتٍ تافهة لا تقرب من الله، ويبخل على نفسه بركيعاتٍ في آخر الليل لله جل وعلا!

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

بل هناك ما هو أتعس من ذلك، وهو أن بعضهم ينقضي الليل، ويدخل وقت الفجر، وتقام صلاة الفريضة، والإمام يقرأ فوق رأسه، بينما هو لازال كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾[1].

وأتذكر مرةً أنني كنت أستمع لبعض المنتسبين للدعوة يتحدث عن النجاح والوقت وإدارة الذات.. إلخ، ولما جاء لقضية النوم، عرض النوم كما يعرضه الإنسان الغربي تماماً، بل صار يغالي في ضرورة أخذ أكبر قدر من النوم، ويتحدث بنفس المعايير الغربية؟!

يا الله، هل بلغت غربة الدين هذا المبلغ؟

فأين ذهبت حقائق القرآن؟ ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾[2]، ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾[3]، ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[4]، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾[5].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ١٧.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٤) سورة السجدة، الآية: ١٦.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٦٤.

صحيح أن ذلك نفل، ولكن لماذا صار النفل يغيب عن وصايانا؟

لماذا خضعت الشريعة للتخفيضات؟

لماذا صرنا نخجل من كتاب الله؟

لو كان النوم بالمعايير الغربية أنفع للإنسان لما ندبنا الله لضده في كتابه في مواضع كثيرة.

والله لو تدبرنا القرآن ونحن مستحضرن هذا السؤال: كيف نصوغ حياتنا في ليلنا ونهارنا؟ لفجعنا بشدة المفارقة بين فهم المؤمن لهذه الحياة الدنيا، وفهم الإنسان الغربي المسكين لها!

وبعض الشباب يقول: إنني لم أتعود على قيام الليل، وليس لي تجربة سابقة، وأشعر أنها صعبة.. إلخ

والجواب: يا أخي.. استعن بالله، ولنبدأ سوياً من هذه الليلة القادمة، لا تؤجل هذا المشروع أبداً، وصدقني ستجد لذةً في البداية يهبها الله من يقبل عليه ليعينه، وهذه اللذة والسرور تحدث عنها أهل العبودية،

يقول ابن القيم: (قال الجنيد: «**واشوقاه إلى أوقات البداية**»! يعني: لذة أوقات البداية، وجمع الهمة على الطلب والسير إلى الله)[1].

فهنيئاً لك -يا أخي الكريم- لذة أوقات البدايةبإذن الله..

وهذه الآيات كلها التي صورت قيام الليل يدخل فيها مرتبتان: قيام الفرض كصلاة العشاء، وقيام الكمال كالتهجد..

وبعض المفسرين يخطئ في حمل بعض هذه الآيات على أحد المحملين، والصحيح أنها تشمل المرتبتين، إلا أن بعضهم يذكر أحد الاحتمالين على سبيل «تفسير التمثيل» لا «تفسير الحصر والحد»، والأول مشهور عن السلف. ويخطئ كثيرون في ظنهم أنه قول في تفسير الآية، وإنما أراد به الإمام من أئمة السلف المثال الذي يعتبر به ما كان من جنسه، وقد نبه على هذه القاعدة الإمام ابن عطية (ت ٥٤٢هـ) بعبارة من عيون علوم القرآن كما قال - رحمه الله: «**وإنما عبر علماء السلف في ذلك بعبارات على جهة المثالات، فجعلها المتأخرون أقوالاً**»[2].

---

(١) مدارج السالكين: ٨٠٩.

(٢) المحرر الوجيز: ١٤/١٤.

ومن تعامل مع كتب المتأخرين في التفسير كزاد المسير مثلاً؛ أدرك عبقرية عبارة ابن عطية هذه، وقد تأثر بها ابن تيمية، واستثمرها، وأقام عليها قاعدة كاملة من قواعد التفسير، شرحها في مواضع متعددة، كقول ابن تيمية عن تفسير السلف: «**أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل، وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه**»[1].

ومن أمثلة ذلك، أنك تجد بعض السلف يُسأل مثلاً عن قول الله (والباقيات الصالحات) فبعضهم يقول: لا إله إلا الله، وبعضهم يقول: سبحان الله والحمد لله، وبعضهم يقول: الصلوات الخمس، ونحو هذه التفاسير، فيأتي بعض المتأخرين فيظنها أقوالاً في تفسير الآية، وإنما أراد بها الإمام من أئمة السلف التمثيل للباقيات الصالحات، لا التفسير الحاصر لمعنى الباقيات الصالحات!

فمن أدرك هذه القاعدة واستوعبها جيداً، أعني قاعدة «تفسير التمثيل»؛ ضاق أمامه الخلاف في التفسير جداً، وميّز بين اختلاف الأقوال، واختلاف الأمثلة.

---

(١) الفتاوى: ١٣/٣٣٧.

حسناً! ما وظيفة هذا السهر الإيماني الذي عرضته الآيات السابقة؟

الحقيقة أن وظائفه كثيرة جداً، ولكن من أعظم وظائفه أن تلك اللحظات هي لحظات (الاستمداد)، فإذا تجافى جنب المؤمن عن المضجع، وتوضأ، ثم وقف بين يدي ربه، ثم سجد، بدأت دقائق الاستمداد.

فيستمد من خزائن رحمات الله، من أرزاقه، من العلم، من التوفيق، من الهداية، إنها لحظات الدعم المفتوح، ورحمات الله إذا فتحت فلا تسل عن أمدائها: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[1].

اللهم يا رب الليل البهيم، اجعلنا ممن تتجافى جنوبهم عن المضاجع ندعوك خوفاً وطمعا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[2].



(١) سورة فاطر، الآية: ٢.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٦.

هل مجتمعنا خير من مجتمع رسول الله ﷺ؟

أعرف أحد المقتحمين للكتابة الصحفية إذا طرح أي فكرة في مقالاته فلا بد أن يذيلها بمقولة (مع الالتزام طبعاً بضوابط الشريعة)، ولا يمل من تكرار هذه الجملة بشكل يطمئن القارئ، لكنه في المجالس الفكرية المحدودة يعلن صراحة بأنه كما يقول: (يا رجل! لا حل لنا إلا بالعلمانية، وتحويل الدين إلى خيار شخصي محترم فقط، كل المجتمعات المعاصرة لم تتقدم إلا بالعلمانية، الدين شيء رائع ونبيل ولكنه يجب أن يبقى ممارسة ذاتية).

تأملت في هذا التناقض الجذري بين الأسلمة في المقالات العامة، والعلمنة في المجالس الخاصة، فقلت لأحدهم: أنا لا أشك أن هذه حالة (نفاق فكري)!

فقال لي معترضاً: كيف تدمغه بوصف النفاق وهو يقول: لا إله إلا الله ويصلي ويصوم ويتصدق؟!

لا أنكر أنني تهيبت وسكتّ.

مضى زمن على هذه الواقعة، وصرت بعدها أهتم كثيراً بمراقبة طريقة استعراض القرآن للشخصية المنافقة، وما هي مشاعرها الداخلية؟ وكيف تتحرك داخل المجتمع المسلم؟

كم كنت مندهشاً حين رأيت القرآن يتحدث عن المنافقين بأنهم يصلون، ويتصدقون، ويذكرون الله!

فأشار القرآن إلى كون المنافقين يصلون، بل إلى أنهم يذكرون الله، كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾[1].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

يا الله! المنافق يصلي، بل ويذكر الله قليلاً، ومع ذلك لم يمنع ذلك عن وصفه بالنفاق!

وأشارت الآية الأخرى إلى صلاة المنافق في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾[1].

وأشار القرآن - أيضاً - إلى كون المنافقين يتصدقون كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾[2].

بل إن النبي ﷺ شرح كيف أن من ابتلاه الله بنفاق في قلبه يجد مشقة كبيرة في الصلاة، ولذلك يجعلها في أواخر الوقت دوماً، كما سبق أن استعرضنا في فصلٍ سابق الحديث الذي في صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان؛ قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا**»[3].

بالله عليك ألم يرعبك هذا الحديث؟!

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٣.

(٣) صحيح مسلم: ٦٢٢.

والله إنه نص مخيف بكل ما في الكلمة من معنى، تأخير الصلاة لآخر وقتها جعلها النبي «صلاة منافق» برغم أنه أخّر العصر لوقت الضرورة وهو وقت تضيُّف الشمس للغروب..

فكيف بمن يطبق على إخراج الصلوات عن أوقاتها؟

أليس ذلك أمارة قوية على أن ثمة نفاقاً خفياً في القلب؟!

بل انظر في أمر أوكد دلالة مما سبق، وهو أن الطائفة التي تهكمت بأصحاب النبي ﷺ وكفرها الله من فوق سبع سماوات، كانوا يقولون كما قال الله عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ﴾[1].

هؤلاء لم يخطر في بالهم أن الموضوع قد يصل إلى الكفر، لأن القضية عندهم كانت مزاحاً وطرافةً، ولكن مقاييس القرآن تختلف كثيراً عن أوهامنا..

كنت أتصور سابقاً أن «المنافق» لابد أن يعلم من نفسه أنه منافق، ويالسذاجة تصوري السابق!

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٦٥، ٦٦.

اكتشفت أن المنافق قد لا يعلم بذلك، بل قد يظن نفسه حين أطلق بعض العبارات إنما أطلقها مزاحاً !

وكنت سابقاً أتوهم أن النفاق هو «قرار» يتخذه المرء، فيقرر بأنه سيكون منافقاً يظهر الإسلام ويبطن الكيد له..!

كنت أظن النفاق مؤامرة كبرى تتخذ بتخطيط شامل، ولم أتوقع بتاتاً أن النفاق قد يقع في القلب بتصرفات نعدها في موازيننا من هوامش الأمور!

بالله عليك! هل تتوقع أن قوماً عاهدوا أنفسهم بأنه إن رزقهم الله مالاً فسيتصدقون به، فلما رزقهم الله؛ شحّت نفوسهم، فسبب لهم ذلك قيام النفاق في قلوبهم!؟

هل تتصور ذلك؟!

انظر ماذا يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾[1].

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ٧٥-٧٧.

تأمل! إنهم قوم يؤمنون بالله لدرجة أنهم عاهدوا ربهم، ولم يفعلوا أكثر من البخل بالمال بعد المعاهدة، ومع ذلك هجم النفاق على قلوبهم بسبب ذلك!

ولم يتأخر الأمر كثيراً، بل كما عبر القرآن (فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم) !

وما الذي يؤمننا نحن حين نقصر في أمر علمنا تعظيم الله له أن لا يعقبنا ذلك نفاقاً في قلوبنا؟ وما الذي يؤمننا حين ننتهك أمراً علمنا حرمته عند الله أن لا يعقبنا ذلك نفاقاً في قلوبنا؟!

بل وكيف يأمن أقوام تتلى عليهم آيات الله في «انحطاط الكافر» ومع ذلك يتفننون في إظهار عبارات احترام ملل الكفر ومساواتها لغيرها؟!

كيف يأمنون أن لا يعقبهم ذلك نفاقاً في قلوبهم؟!

وأقوام يرون آيات الله تتلى كلها في التحفظ والاحتياط والتصون في العلاقة بين الجنسين، ومع ذلك يتهورون في إطلاق الانفتاح بين الجنسين، كيف يأمنون أن لا يعقبهم ذلك نفاقاً في قلوبهم؟!

وأقوام يرون آيات الله تتلى كلها في تعظيم كمال اهتداء السابقين الأولين، ومع ذلك يطلقون عبارات لا يلقون لها بالاً في أن «تجربة السلف لا تلزمنا»، كيف يأمنون أن لا يعقبهم ذلك نفاقاً في قلوبهم؟!

وأقوام يرون الله في القرآن يأمر صراحة برد الخلاف والنزاع إلى النص، وهؤلاء يتذرعون بالخلاف في تعطيل النصوص، فكلما قيل لهم: قال الله، وقال رسول الله؛ قالوا: فيه خلاف!

كيف يأمنون أن لا يعقبهم ذلك نفاقاً في قلوبهم؟!

وأقوام يرون الله في القرآن يأمر صراحة بموالاة المصلحين ومنافاة المضلين، ثم يرددون صبحاً ومساءً بأن كل القضية مجرد خلاف داخل الوطن، ويجب ترك الاصطفاف والتحزب والاستقطاب، كيف يأمنون أن لا يعقبهم ذلك نفاقاً في قلوبهم؟!

حين رأيت الله تعالى يقول عن رجل بخل بعد أن عاهد على الإنفاق، وهذا كل ما صنع،

شح بماله بعد أن عاهد ربه على الصدقة، ومع ذلك يقول الله عنه: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾[1] استطعت أن أفهم قلق أصحاب رسول الله من النفاق!

لقد كنت أفهم حديث ابن أبي مليكة المعروف عن قلق الصحابة من النفاق على أن سببه هو «ورع الصحابة» فقط، وهو الحديث الذي يقول فيه ابن أبي مليكة: **«أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه»**[2].

كنت أقول في نفسي: إن هذا من باب الاحتياط المستحب فقط الذي يصنعه الصحابة، لكن هذه الآية العجيبة ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ والتي شاهد الصحابة واقعتها عيانا، وشاهدوا نظيرها، هي التي جعلتهم يفهمون النفاق على أنه «أثر» لتصرفات معينة، كثيراً ما يكون صاحبها لم يتوقع نتائجها، وليس النفاق «قراراً» يتخذه المرء!

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٧.

(٢) صحيح البخاري، ٤٨.

أي أن الإنسان قد يقوم بأقوال أو أفعال فيها مصادمة لكتاب الله تقوده للنفاق وهو لا يعلم! وليس بالضرورة أن يكون النفاق «إرادة واعية»..

المهم الآن، أن القرآن صور المنافقين أنهم قد يصلون، وقد يتصدقون، وقد يذكرون الله، ومع ذلك لم يستنقذهم ذلك من ورطة «النفاق» بسبب تصرفات لم يتوقعوا نتائجها..

ولكن هل يمكن لنا أن نعرف «المنافق»؟

أليس المنافق شخصاً متستراً؟

أليس النفاق حالة قلبية لا يمكن الاطلاع عليها؟

لنحاول أن نحلل هذا التصور على ضوء القرآن!

الله تعالى بين صراحة أن المنافقين ألوان، فبعض المنافقين مستترين لا يعرفون، وبعضهم يصرح لبعض الناس لكن لا يعلن ذلك على الملأ، وبعضهم يظهر النفاق فقط من ملامح أفكاره وخطابه، وتأمل هذه الآية التي تكشف ملامح خطاب المنافق: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾[1].

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٠.

فيا ترى، كم من خطاب فكري معاصر يجد القارئ في لحن خطابه شُعَباً من النفاق التي لا تحصى؟!

ولذلك كان الصحابة يعرفون بعض المنافقين بأعيانهم بسبب أفكارهم ولحن خطابهم، كما صور ذلك كعب بن مالك بعبارة بديعة في حديثه الطويل في صحيح البخاري حين قال: «**فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصاً عليه النفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء**»[1].

فتلاحظ أن بعض المنتسبين للإسلام في مجتمع الرسول كان «مغموصاً» عليهم النفاق، أي مطعونين ومتهمين بذلك!

فإذا كان أصحاب رسول الله يغمصون بعض الناس بالنفاق، فكيف يقال: إن وصف النفاق لا يمكن إطلاقه على معين بتاتاً لأنه حالة قلبية مستترة؟!

---

(١) البخاري: ٤٤١٨.

وفي صحيح مسلم في شأن صلاة الجماعة يقول الصحابي: **«ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، أو مريض»**[1].

فقوله: «منافق معلوم النفاق» فرع عن كون الصحابة يعينون بعض آحاد وأعيان المنافقين، وهذا يدل على أن الصحابة لم يكونوا يقولون: (إن النفاق كله حالة قلبية مستترة لا يمكن معرفتها)!

بل إن هذه المقولة: (أن النفاق كله حالة قلبية مستترة لا يمكن معرفتها مطلقاً) تفضي إلى تعطيل جملة من أحكام القرآن في المنافقين، وسأحاول الإشارة لنماذج من هذه الأحكام القرآنية:

فمن ذلك أن الله أمرنا في موضعين من القرآن، في سورتي التوبة والتحريم، أن «نجاهد المنافقين» كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[2].

---

(١) مسلم: ١٥١٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٣، وسورة التحريم، الآية: ٩.

والأمر بجهاد المنافقين فرع عن إمكانية معرفة بعضهم بأعيانهم، ولو كان المنافق لا يمكن تعيينه مطلقاً لكان هذا الأمر القرآني عبثاً، وحاشا القرآن ذلك!!

وكذلك نهانا الله عن الانقسام في الموقف من المنافقين، وأمرنا الله أن نكون كلمة واحدة في مواجهتهم، وغالباً ما يكون الانقسام بسبب أن بعض الأخيار يطمع في هداية المنافقين فيقصّر في مجاهدتهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾[1].

ولو كان المنافقون لا يمكن تعيينهم لكان نهي القرآن عن الانقسام إزاءهم عبثاً لامعنى له، وحاشا القرآن ذلك!

كما أن القرآن نهى عن الميل لنصائح المنافقين والرضوخ لضغوطهم فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ﴾[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١.

ونهانا الله عن إرخـاء الآذان لهم، فقال سبحانه: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾[1].

والمراد أن هناك منظومة أحكام قرآنية تنظم منهج التعامل مع المنافقين، فالقول بأن المنافقين لا يمكن تعيينهم مطلقاً يفضي إلى تعطيل هذه الأحكام القرآنية، فانظر إلى هذا الذي يتوهم أنه متورع في زعمه بأنه لا يمكن تعيين أي منافق كيف أفضى به «وهم الورع» إلى تعطيل أحكام القرآن في التعامل مع المنافقين!

حسناً! ما علاقة كل ذلك بعنوان هذا الفصل (هل مجتمعنا خير من مجتمع رسول الله) ؟

الحقيقة أنه مرّ بي حديث في صحيح البخاري فيه أن حذيفة جاء إلى حلقة في المسجد فيها مجموعة من التابعين فقال لهم كما في البخاري: «**عن الأسود قال: كنا في حلقة عبد الله، فجاء حذيفة حتى قام علينا فسلم ثم قال: لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم**»[2].

---

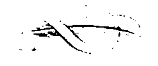
(١) سورة التوبة، الآية: ٤٧.

(٢) البخاري: ٤٦٠٢.

وحذيفة -رضي الله عنه- يقصد أنه إذا كان مجتمع النبي ﷺ الذي كان الوحي فيه يتنزل، والمعجزات تظهر على يدي رسول الله، ومع ذلك وقع تورط بعض الناس في ذلك المجتمع بالنفاق، فكيف بمجتمعكم؟

إذا كان ذلك في عصر من بعد النبي ﷺ فكيف نقول عن عصرنا نحن؟

حقاً، لقد صدق حذيفة رضي الله عنه، لقد أنزل النفاق على قوم خير منا، فكيف نستبعد وجود المنافقين بيننا؟!



الراضـون

من الأشياء التي تبتهج بها نفسي حين يتهادى إلى أذني صوت أحد كبار السن وهو يذكر الله..

لا أدري لماذا يكون لزجل ذي الشيبة بالتسبيح وقع تنفسح به أرجاء النفس..

وأحس بسكينة جميلة تتهادى في المكان، وكأن جلبةً ودوياً يغادران من حولنا..

بمجرد أن تطفو همسات أحد الكهول متهدجة بعبارة: «سبحان الله، سبحان الله»..

بل وأشعر أن ثمة ما يفرض الصمت والإطراق إجلالاً لتلك التسابيح الممزوجة بصوت يدبّ دبيباً كأنما أثقلته السنون..

وخصوصاً إذا كانت تسابيح كبار السن هذه في أواخر الليل، وهم يحملون على أنفسهم إما لتهجد أو تلاوة، أو هم يمشون في سواد الليل وقبيل أذان الفجر إلى المسجد، أو نحو ذلك،

ومن الأمور التي كانت تثير انتباهي أن كل من رأيت من كبار السن الصالحين اللاهجين بذكر الله، أنهم يعيشون «رضا نفسياً» عجيباً ومدهشاً..

لا أعرف أحداً من كبار السن الذاكرين لله إلا وقرأت في روحه طيب الخاطر، وانشراح الصدر، والرضا الذاتي.

وبكل صراحة فإن هاتين الظاهرتين (التسبيح) و(الرضا النفسي) لم تكونا مرتبطتين في ذهني بصورة واضحة، ولكن مرت بي آيةمن كتاب الله كأنها كشفت لي سر هذا المعنى، وكيف يكون التسبيح سائر اليوم سبباً من أسباب الرضا النفسي،

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[1].

لاحظ أولاً في هذه الآية كيف استوعب التسبيح سائر اليوم، قبل الشروق، وقبل الغروب، وآناء الليل التي هي ساعاته، وأول النهار وآخره.

ماذا بقي من اليوم لم تشمله هذه الآية بالحث على التسبيح؟!

ولذلك شرع الله في هذه المواضع أعظم التسبيح وهو (الصلاة). والرضا في هذه الآية عام في الدنيا والآخرة.

وقد كنت تحدثت مرةً مع أحد أقراني بهذا المعنى في هذه الآية، أعني العلاقة بين التسبيح والرضا النفسي، فذكر لي أنه مرت به آيةٌ أخرى تشير أيضاً إلى هذه الرابطة، وهي قول الله في خاتمة سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾[2].

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣٠.

(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

فانظر كيف أرشدت هذه الآية العظيمة إلى الدواء الذي يُسْتشفى به من ضيق الصدر، فكم في الدنيا من صدور أضنتها الأحزان! وكم في الدنيا من وجوه ذوت بما تخفي من أوجاع نفسية! وتأمل كيف جعلت الآية التسبيح ترياقاً تستطب به النفوس، وتداوى به الغموم، وتثلج به غصص الأحشاء؟!

كلما قرأت قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[1]، وقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[2]؛ قلت في نفسي: سبحان من جعل النفوس ترتوي بالرضا من ينابيع التسبيح!

وكم نحن مغبونون في أيام وليالٍ وسنين تصرمت دون أن نعمر آناء الليل وأطراف النهار بالتسبيحات، يا خسارة تلك السنوات! يا ضيعة تلك اللحظات التي مضت من أعمارنا لم نملأها بتسبيح وذكر لله، فسبحان الله! وبحمده عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه ومداد كلماته.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣٠.

(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

تلك الدقائق من أعمارنا أعطيت لنا ليختبرنا الله فيها، ثم مضت الآن، ولن تعود، لن تعود أبداً! وها هو ذا مؤشر الساعة ما زالت عقاربه تلهث ليعلن في كل دقيقة كميةً من أعمارنا سحبت منا، فهل هذه الدقائق التي تستنفد الآن من أعمارنا سجلنا فيها تسبيحاً لله، أو كانت مستغرقة في عملٍ صالح، أم احترقت هذه الدقائق هكذا في الفضول، فضول الكلام، وفضول السماع، وفضول مشاهدة الفضائيات، وفضول تصفح الإنترنت.. إلخ؟!

ومن أعجب المعلومات التي زوّدنا بها القرآن أننا نعيش في عالم يعج بالتسبيح من حولنا، تسبيح الكائنات في هذا العالم مشهد مهيب صوّره القرآن.

تأمل مثلاً كيف أخبرنا الله أن الرعد يسبّح: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[1]، وأن الجبال والطير تسبّح: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾[2].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

بل أخبرنا خبراً عاماً أن كل الكائنات تسبّح لله، بما فيها السماوات نفسها، والأرض نفسها، وما فيهما من مخلوقات، كلها تسبّح لله، لكن تسبيحها له لغةٌ لا نفقهها كما يقول الله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[1].

ويزيد القرآن من تفاصيل جلالة هذا المشهد، فيخبرنا بأن كل كائن من هذه الكائنات له مسلك خاص في تسبيح الله، يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾[2].

وربما ظن بعض الناس أن (تسبيح الكائنات) هو مجرد خبر مجازي، وأنها لا تسبّح حقيقةً! وهذا تصور مرجوح، فالصحيح أنه تسبيح حقيقي، حتى إنه في بعض الأحوال كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمعون هذا التسبيح، فقد روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «**ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل**»[3].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٢) سورة النور، الآية: ٤١.

(٣) البخاري، ٣٥٧٩.

ومثل تسبيح الطعام هذا الذي كان يسمعه الصحابة هو حالة خاصة في زمن خاص، أما تسبيح الكائنات في نظامها العام فقد أخبرنا الله أنه بلغة خاصة كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

وقد أشار الإمام ابن تيمية إلى هذه الحالة الخاصة الاستثنائية في فهم لغة المخلوقات فقال رحمه الله: (بل هو سبحانه يُنطِق الجماد بأصوات يفهمها من يفهمها من الآدميين، كما قال عن داود -عليه السلام- ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ والحصى قد سبح في كف النبي ﷺ، وقال ابن مسعود -رضي الله عنه: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. وكان أبو الدرداء وسلمان الفارسي يسمعان تسبيح القدر، وقال النبي ﷺ: **«إني لأعلم حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»** وهذا باب واسع)[1].

---

(١) بيان تلبيس الجهمية: ٤٥٩/٨، طبعة مجمع الملك فهد، ت:راشد الطيار.

فإذا استشعر المؤمن الذي شرفه الله باليقين بهذا القرآن، الذي يتعامل مع أخبار القرآن كأنما يشاهدها رأي العين، إذا استشعر هذا المشهد، وأخذ يجيل عينه في الكون من حوله، فيقلّب وجهه في السماء، وينظر في فجاج الأرض، ويمسك الأشجار بيديه، ويتأمل الطير فوقه وهن صافّات ويقبضن، ويستحضر تلك الكائنات المدهشة التي تعيش في قيعان المحيطات، ثم يستعيد كلام الله عن أن هذه الكائنات كلها تسبح لله، كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه، ولكن لا نفقه تسبيحهم، فإنه لا يكاد يطيق المهابة والإحساس بالعظمة الإلهية التي تتوارد على قلبه، وتكاد تعتقل لسانه.

فإذا جمع المؤمن في قلبه هذا المشهد السابق في تسبيح الكائنات لله، ثم أضاف إليه أن الله اختار أن يبدأ كثيراً من سور القرآن بالتسبيح، كما استفتح الله بالتسبيح سبع سورٍ من القرآن، وهي: سورة الإسراء، وسورة الحديد، وسورة الحشر، وسورة الصف، وسورة الجمعة، وسورة التغابن، وسورة الأعلى.

وإذا أضاف المؤمن إلى ذلك أن الصلاة التي هي أعظم شعائر الإسلام، جعل الله في ركوعها التسبيح: (سبحان ربي العظيم)، وجعل في سجودها التسبيح: (سبحان ربي الأعلى).

وإذا أضاف المؤمن إلى ذلك تسابيح الأنبياء، كقول موسى ﷺ في بيان وظيفة نبوته: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾[1]، فطلب موسى مساعداً له في رسالته، وجعل وظيفة هذه الرسالة أن يسبحا لله كثيراً ويذكراه كثيراً!

ويونس ﷺ فزع إلى التسبيح في اللحظة الحالكة: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[2]، وبيّن الله سبحانه أن تسبيح يونس هو الذي كان سبباً في نجاته من بطن الحوت: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة طه، الآيات: ٢٩-٣٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٤٣، ١٤٤.

وأن الملائكة لا تفتر عـن التسبيح كما قال الله سبحانه عنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾[1]، وقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[2]، وقول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[3].

بل أخبرنا الله عن لهج ألسنة أهل الجنة، السعداء، بالتسبيح، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾[4].

فإذا ضمّ المتدبر هذه الشواهد، ورأى كيف أن الرعد والجبال والسماوات والأرض والكائنات كلها تسبّح لله، وأن الله استفتح سبع سورٍ بالتسبيح، وأن الله جعل الركوع والسجود وهما من أهم أركان الصلاة تسبيحاً،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧٥.

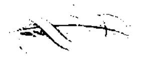
(٣) سورة غافر، الآية: ٧.

(٤) سورة يونس، الآيتان: ٩، ١٠.

ومنزلة التسبيح في أخبار الأنبياء، واتصال الملائكة بالتسبيح، وتسبيح أهل الجنة، إذا ضم هذه الشواهد كلها بعضها إلى بعض؛ تغيرت نظرته جذرياً لمفهوم التسبيح، وأدرك أن للتسبيح منزلة عند الله تفوق المنزلة التي نتصورها عادةً.

ولا يتأمل المؤمن مثل هذه المنزلة للتسبيح إلا ويدركه شيء من الألم على فوات كثيرٍ من لحظات العمر عبثاً دون استثمارها بالتسبيح.

وأي شيء أجمل من قضاء دقائق الانتظار، والطريق، ولحظات الصمت، في تسبيح الله؟!





أقوى الناس

حياتنا معجونة بالمهام والالتزامات، والقرارات العابرة والجسيمة، في الدراسة والعمل، والزواج والمسكن، والسفر والإقامة، والصحة والمرض، وفي كل هذه المتطلبات فإننا نسعى لإنجازها باتخاذ الأسباب كما أمرنا الله، وكما هو مركّب في فطرتنا أصلاً.

هـذا المشهـد، مشهـد طبيعي ومتكـرر، وإنمـا الذي يستحق أن نفحصه ونتأمله هـو تلك المشاعر والأحاسيس التـي تتحـرك في داخلنـا في كيفيـة قراءتنـا للعلاقة بين النتائج والأسباب.

كثيراً ما يرتبط في أذهاننا أن قوة النتائج مرتبطة بما يظهر من قوة الأسباب في مظاهرها وغطائها المادي، ولذلك تهفو النفوس للتعلق بالسبب.

كثيراً ما يمور في عقولنا تصورات مسبقة أن أقوى الناس هم أولئك الذين يملكون أقوى الأسباب المادية.

وقد أثار انتباهي تنبيه لطيف لأحد السلف يزلزل هذه القناعات والتصورات المطمورة، وقد نقله أبو العباس ابن تيمية، واحتفى به، في عدة مواضع من كتبه.

يقول ابن تيمية في رسالته التي تسمى التحفة العراقية: **«قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهي والعبادة والطاعة شاهدين لإلهية الرب سبحانه الذي أمروا أن يعبدوه، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة، وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة؛ فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان؛ لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له؛ هي التي تقوي العبد وتيسر**

عليه الأمور، ولهذا قال بعض السلف: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»[1].

وروي هذا الأثر مرفوعاً إلى النبي ﷺ لكن لا يثبت مرفوعاً كما أعلّه الإمام أبو جعفر العقيلي (ت ٣٢٢هـ)[2].

حسناً! هذا الأثر السلفي يبين أن القوة الحقيقية مرتبطة بقوة التعلق بالله، لا بالتعلق بالأسباب، فقوة التوكل هي المدد الحقيقي أمام صعوبات الحياة، ويتفاوت الناس في قوتهم بحسب ما في قلوبهم من التوكل الشرعي، ولكن قبل أن نتحدث عن هذه العلاقة؛ ما هو الدافع للتوكل؟ بمعنى آخر: لماذا نتوكل على الله؟

دعنا -أخي القارئ- نحلل دوافع التوكل، أو نجيب على سؤال: لماذا نتوكل على الله؟ بحسب المنظور القرآني:

نتوكل على الله لأن التوكل معيار الإيمان، التوكل على الله هو اللحظة التي تكشف مصداقية إيمانا بالله، ولاحظ هذا الامتحان في قول الله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[3].

---

(١) الفتاوى: ١٠/٣٢.

(٢) الضعفاء الكبير للعقيلي: ٤/٣٤٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٣.

وفي الحوار الذي دار بين موسى ﷺ وقومه كم يلفت النظر دوران الحوار حول «التوكل» وأنه مقياس الإيمان والإسلام!: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[1].

فإذا تدبر قارئ القرآن هذه المنزلة لاعتماد القلب على الله ولجوئه إليه، وتفويضه الأمور إليه تغيرت نظرته كلياً لموقع التوكل في حياته..

نتوكل على الله لأن الله سبحانه هو أعظم وكيل، حتى إن الله سبحانه قال في خمسة مواضع من القرآن ذات الجملة: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ قالها سبحانه في سورة النساء ثلاث مرات، وفي سورة الأحزاب مرتين، كقوله سبحانه: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾[2]، ويقول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[3].

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ٨٤، ٨٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٣٢.

فإذا كان القرآن يعيد على مسامعنا خمس مرات ذات الجملة «وكفى بالله وكيلا» فهل امتلأت قلوبنا فعلاً بحقيقة هذا المعنى ونحن نعارك تصاريف الحياة؟ وهل نحن نتسلق المطالب، ونتجرع المصائب، ونخوض الأهوال؛ وقلوبنا معلقة بالسماء تفيض بهذا المعنى «وكفى بالله وكيلا»؟

ألا يكفيكِ يا نفسُ أن الله هو الوكيل؟ بل هو «نعم الوكيل» سبحانه كما قال أهل الإيمان: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

نتوكل على الله لأنه هو الذي يكفينا، ومن أعظم كفاية من الله؟! ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[2].

لو علم المرء أن فلاناً من المسؤولين هو المتكفل بمعاملته لتنفس اليقين وفرغ قلبه من الشك بتحقق مطلبه، فكيف يفوّت المرء على نفسه أن يكون الله خالق هذه الحاجات، والخالق لسبل قضائها، والخالق لموانعها، هو الذي سيتكفل بأمرك إذا توكلت عليه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٣.

من كان الله حسبه؛ فكيف ستكون قوته بين الناس؟!
ولذلك قال من قال من السلف: «**من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله**» كما نقل ابن تيمية في الاقتباس السابق..

ومما يفغر فم الاستغراب حين يتأمل المرء هذه الحقائق القرآنية التي أخبرنا بها الله ذاته، ثم يلاحظ غياب الانتفاع والاستفادة من هذه الحقائق في حياتنا!

الخالق سبحانه يفتح فرصة لعبده ليكون الله تعالى هو حسبه إذا توكل عليه، ومع ذلك يقصر القلب في الانكباب على الله، والتعلق به؛ فيفوّت على نفسه هذه القوة العظيمة!

نتوكل على الله لأن التوكل عليه سبحانه يحمينا من سلطة الشيطان، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[1].

فالشيطان حاضر في تفاصيل حياتنا، يسعى بفنون الإضلال ليجر ابن آدم معه إلى المصير التعيس،

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٩.

فالشيطان حاضرٌ في حياتنا يزل ويستزل، ويوسوس، ويفتن، وينزغ، ويهمز، ويسوّل، ويملي، ويؤز، ويضل ويصد عن الله، ويستهوي للحيرة، ويرمي في طريقنا الخطوات ليستدرجنا للخطايا، ويخوفنا من الفقر كلما فكرنا في النفقة في سبيل الله، ويزين لنا الباطل فيضعه في قالب الأمر الطبيعي والجميل، وأنه لا داعي للمبالغة، وهي من أخطر أساليب الشيطان، وتستخف الشياطين أهل الباطل وتؤزهم وتورطهم في الاندفاع.

ويسعى الشيطان لينسينا أمر الله سواء كان نسياناً معفواً عنه بمعنى غياب العلم، أو اكتنان المعلوم كما في السهو، كما قال في المراقي:

زوال ما عُلِم قُلْ: نسيانُ
والعلم في السهو له اكتنانُ

أو إنساءً غير معفو عنه وهو حضور العلم وغياب خشية الله وإرادته، فالشيطان حريص على كلا النوعين من النسيان: نسيان الذهول المعفو عنه، ونسيان الغفلة المتوعد عليه..

وكلا نوعي النسيان مما تحتملهما لغة العرب كما قال حافظ المغرب أبو عمر ابن عبد البر: «**والنسيان في لسان العرب: يكون للترك عمداً، ويكون ضد الذكر**»[1]. وجاء هذان الوجهان العربيان في القرآن كما قال ابن القيم: «**النسيان في القرآن على وجهين: نسيان ترك، ونسيان سهو**»[2].

قال الله تعالى في كون الشيطان يزل ويستزل: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾[3]، وقال الله سبحانه: ﴿ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾[4].

وأخبر الله سبحانه عن سعي الشيطان في الإضلال: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾[5].

وأخبر عن نزغ الشيطان: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾[6].

---

(١) ابن عبدالبر، الاستذكار: ١/١١٤، طبعة دار إحياء التراث.

(٢) ابن القيم، الصلاة وحكم تاركها، ٧٥، طبعة مكتبة الإيمان.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.

(٥) سورة النساء، الآية: ٦٠.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

وقال: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾[1]، وقال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ ﴾[2].

وأخبر عن همز الشيطان في النفوس: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ ﴾[3].

وأخبر عن وسوسة الشيطان بالمعاصي والفواحش: ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا ﴾[4].

وأخبر الله عن تسويل الشيطان وإملائه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ۝٢٥ ﴾[5].

وأخبر عن استهواء الشياطين إلى الحيرة والارتيابات والشكوك: ﴿ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ ﴾[6].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٩٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠.

(٥) سورة محمد، الآية: ٢٥.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

وأخبر عن استخفاف الشياطين لأهل الباطل ودفعها إياهم إلى التهور والاندفاع في الانحراف: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾[1].

وحذرنا ربنا من تفنن الشيطان بالفتن: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾[2].

وأن الشيطان يشوش تفكيرنا بالقلق من الفقر إن أنفقنا في سبيل الله، ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴾[3].

وأخبرنا الله عن خبث الشيطان في تغييب واستكنان المطلوب الشرعي: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾[4]، وقال الله سبحانه: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾[5]. وقال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾[6]. وقال الله عز وجل: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾[7].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٨٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

(٦) سورة الكهف، الآية: ٦٣.

(٧) سورة المجادلة، الآية: ١٩.

وإن الشيطان ينصب الخطوات التدريجية كما قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾[1]، وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾[2].

وأخبر الله تعالى عن رسم الشيطان للباطل والمعاصي في قالب الأمر الجميل والواقعي والمصلحي والطبيعي: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[3]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾[4].

ولذلك ترى الرجل يرتكب المعصية، ويؤنبه ضميره زمناً، وتراه يقول لمن حوله: والله إني متألم من هذا الأمر، وجزاكم الله خيراً على النصيحة، ثم لا يزال الشيطان به حتى تراه بعد زمن يدافع عن معصيته ويراها أمراً طبيعياً، وأن من حوله يعانون -في نظره- من غلو ونزعة للتحريم، وأن هذه فتاوى قديمة والعصر تغيّر.. إلخ من أفكار الشيطان في تزيين المعاصي للناس!

(١) سورة النور، الآية: ٢١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٤٣.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

فإذا رأيت هذا المشهد فتذكر فوراً قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[1] وقوله: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

وأخبر عن وظيفة الشيطان العامة في الصد عن سبيل الله ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾[3].

ومن أعجب ما يقوم به الشيطان سرعة تنصله بعد أن يقع الإنسان في شباكه: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾[4].

فمن تأمل أعمال الشيطان وأساليبه وخططه ومؤامراته وأفخاخه التي ينصبها - كما صورها الله لنا تفصيلاً في كتابه - أدرك شدة خطر الشيطان، حتى إن الإمام ابن القيم لما لاحظ هذا المعنى ألف كتاباً بديعاً استمد عنوانه من هذا المعنى فسمّاه «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»، وذكر فيه من المعاني الشرعية حول صحة القلب ومرضه والأدوية الشرعية له،

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٣.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦٢.

(٤) سورة الحشر، الآية: ١٦.

ثم فصّل تفصيلاً مذهلاً في مكايد الشيطان في العقيدة كما في القبور، أو في فقه الفروع كما في الطهارة والمعازف، والحيل في النكاح والربا وأنـواع من المعاملات، وختم كتابه بتلاعب الشيطان وكيده بالاتجاهات غير الإسلامية كالفلاسفة والمجوس وأهل الكتابين قبلنا. وهو كتاب عظيم مشحون بالفوائد والأبحاث والاستطرادات العقدية والفقهية والإيمانية، يدلّ نفَسه فيه أنه ألّفه على البسط لا على إرادة الاختصار.

المهم، أن الله في كتابه قد بين لنا أن (التوكل) من أعظم وسائل مكافحة مخاطر وسلطة الشيطان كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[1].

كما أن من أعظم دوافع التوكل أننا نتوكل على الله شكراً له وامتناناً لأنه هدانا سبحانه، فحين ترى نفسك من أهل لا إله إلا الله، أو ترى نفسك محافظاً على الصلاة، أو ترى نفسك بعيداً عن فكر الهزيمة والانكسار والانحناء للثقافة الغربية، وبعيداً عن حمل النصوص الشرعية

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٩.

وتأويلها لتوافق مقررات الثقافة الغربية الغالبة، فإنك تحمد الله وتشكره إذ رفعك عن الانحطاط السلوكي والفكري، وترى منة الله عليك إذ شرفك بالرقي العقدي، ويوجب لك هذا مزيداً من التوكل والتعلق بالله، ألا ترى أهل الإيمان كيف يربطون بين هداية الله والتوكل: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ ﴾[1].

هذه بعض دوافع التوكل التي أشار إليه كتاب الله العظيم، ولكن قد يثور هاهنا سؤال: متى نتوكل بالضبط؟

الحقيقــة أن التوكل له مرتبتــان: توكل عام لا ينفك المؤمن عنــه، بحيث يكون قلبه معلقاً بــالله بشكل مستمر بمقتضى توحيد الله وألوهيته كما قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[2]، فهذا التوكل معيار الإيمان.

وثمة مرتبةٌ أخرى: وهي التوكل في الأمر الخاص المعين، وهذا يكون بعد العزم عليه مباشرة، كما قال الله سبحانه: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾[3].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٢.

(٢) سورة التغابن، الآية: ١٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

حسناً! هذا (التوكل) الذي أبدأ القرآن فيه وأعاد، وكرره في مواضع كثيرة، وسياقات متنوعة، ما هو بالضبط؟ ما معنى التوكل؟

والإشكال بصياغة أخرى؛ الكثير يتساءل: كيف أكون متوكلاً؟ كيف أحقق هذا المقام الإيماني العظيم الذي يحبه الله، ويعرضه لنا في القرآن بكثرة، ويرغبنا فيه؟

لأهل العلم في علم السلوك ومقامات الإيمان تعريفات كثيرة للتوكل، بعضها فيه تعريف للتوكل في حقيقته الكلية، وبعضها فيه إضاءة لبعض جوانب التوكل، ويبدو أنها بحسب حال السائل، ولكن بعيداً عن الإسهاب في استعراض تعريفات التوكل يمكن القول بكل اختصار: إن التوكل هو «اشتغال الجوارح بالأسباب، واشتغال القلب بالله».

وقد لخص الإمام ابن القيم شيئاً من الوقائع الشرعية في اتخاذ الأسباب لما انتقد الطائفة الصوفية التي ظنت أن التوكل يعني ترك الأسباب، كما يقول ابن القيم ناقداً: «**مدعين لأنفسهم حالاً أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه، إذ لم يكن فيهم أحد قط يفعل ذلك، ولا أخل - النبي والصحابة - بشيء من الأسباب،**

وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين يوم أحد، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه يدله على طريق الهجرة، وكان يدخر لأهله قوت سنة، وهو سيد المتوكلين، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد، وجميع أصحابه، وهم أولو التوكل حقا، وأكمل المتوكلين بعدهم هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة»[1].

ولكن، ومع فعل الأسباب، فإن القلب معلق بالله، ملتفت معرض عن التعلق بهذه الأسباب، ولذلك ترى المتوكل يلهج بالذكر، يرقب توفيق ربه، ويتمتم بالدعاء.

يتحدث المتوكلون عن أذواق لهم يشعرون بها لا يتصورها المحبوسون في زنازين خطاياهم مثلنا، فمن أراد أن يعرف ماهي (الطمأنينة)، وما هي (السكينة)، وأي شيء هو (راحة البال)، فليجرب التوكل..

هل تظن رجلاً قلبه معلقٌ بملك الملوك سبحانه فوق سبع سماواته يقلقه شيء من مقادير هذه الدنيا؟..

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين: ٤٦٧، طبعة دار الكتاب العربي.

تأمل طمأنينة وسكون خليل الله إبراهيم -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو يرى أعمدة اللهب التي أضرمها قومه ليحرقوه فيها كما قص الله سبحانه: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ ﴾[1]، وقد اقترب الخليل من الوقوع في هذه النار العظيمة، فلم يجزع، ولم يرتبك، ولم يلتمس منهم الرحمة والعفو والصفح، بل كل الذي كان يقوله هو: (حسبنا الله ونعم الوكيل)، ولم يكن ذلك فقط قبل أن يلقى، بل حتى بعد أن وقع في النار عليه السلام، كما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: (**كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار: «حسبي الله ونعم الوكيل»**)[2].

ثم تأمل طمأنينة النبي ﷺ إذ جاءته الأنباء باجتماع الجيوش ضده، فكان أن قال هذه العبارة ذاتها: (**حسبنا الله ونعم الوكيل**).

وقد قارن ابن عباس بين موقف خليل الله إبراهيم، وخليل الله محمد صلى الله عليهما وسلم،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٨.

(٢) البخاري: ٤٥٦٤.

فقال: («حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم - عليه السلام - حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾)[1].

ثم تأمل ماذا قال الله عن موقف رسول الله ﷺ ومن معه؟ قال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[2].

ألا تلاحظ روعة الموقف إذ قال الله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾؟!

الخبر يقول: إن جيوش الأعداء مكتظة في الطريق إليكم، وهؤلاء يزدادون إيماناً.

يزدادون إيمانا في اللحظة التي تنهار فيها نفوس كثير من الناس، رباه، ما أسعد المتوكلين!

حسناً! من الواضح من خلال التصوير القرآني للتوكل أن التوكل (حالة قلبية) في التحليل الأخير،

---

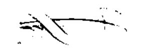
(١) البخاري: ٤٥٦٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

لذلك كان إمام أهل السنة.. الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- يقول: «**التوكل عمل القلب**»[1].

فإذا تدبر قارئ القرآن الآيات التي وصف الله فيها التوكل في كتابه، وكيف يأمر به تارة، ويصف أهل الإيمان به تارةً أخرى، ويرغّب المتوكل بأن يكون الله حسبه، وأن الله نعم الوكيل، فإنه يدرك حب الله سبحانه لقيام هذه الحالة القلبية في عبده، وأنها من أرفع مقامات الإيمان عند الله.

فهل ستنقضي هذه الدنيا، ونرقد في قبورنا، ونحن لم نتذوق هذا المقام العالي، مقام التوكل، الذي تزداد به قوة النفس، وتصبح القوى البشرية أمامها كالهباء؟!



---

(١) ابن القيم، طريق الهجرتين: ٥٦١، طبعة مجمع الفقه.



كأنك تراه

أخبرنا الله سبحانه أنه «يفصل الآيات» لنا في كتابه المقروء والمشهود لتحقيق غاية في نفوسنا نحن، كما قال الله سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[1].

أليس عجيباً أن تكون هذه التفاصيل المهيبة في آيات الله الشرعية والكونية هي من أجلنا نحن؟ بل من أجل أن ترفرف قلوبنا باليقين؟!

وأظهر الله لخليله إبراهيم -صلى الله عليه وآله وسلم- من الآيات البديعة في ملكوت الكون حتى يكمل يقين الخليل،

(١) سورة الرعد، الآية: ٢.

كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾[1].

ومدح الله سبحانه أحكامه الشرعية بالجمال والحسن، ولكن القرآن ذاته نبّه أنه لا يتمتع بكمال الفهم لحسن وجمال أحكام الله إلا من تطهرت قلوبهم باليقين، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[2]، ألا يعني هذا أن من فاته إدراك جمال وحسن أحكام الشريعة إنما كان ذلك بسبب ما فات قلبه من اليقين، وبسبب ما زاحم اليقين في قلبه من الارتيابات والتردد؟!

ألا يعني هذا أن القلب كلما ارتفع في مدارج اليقين زادت قدرته على مشاهدة المعالم الجمالية لمملكة أحكام الشريعة، وكلما تكاثف ضباب الشكوك والحيرة في أجواء قلبه تعسّر عليه رؤية جماليات الأحكام الشرعية؟

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

وجعل الله في هذا القرآن «رحمة»، لكن الناس يتفاوتون في الانتفاع بهذه الرحمة القرآنية بحسب ما في قلوبهم من اليقين، كما قال الله سبحانه: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[1].

فانظر.. كيف أنه كلما تعاظم اليقين في قلب العبد، تنزّلت عليه رحمات الله، وانفتحت له رحمات القرآن؟!

وأخبرنا الله أن اليقين هو الطريق إلى أعلى وصف من أوصاف التديّن، وهو وصف (الإمامة في الدين)، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[2].

بل إن القرآن لم يرسم لقارئه درب اليقين فقط، وإنما أضاف طريقة التعامل مع الشريحة التي تعاني من نقص اليقين، فنهانا القرآن أن نتأثر بإرجاف مرضى الحيرة والشكوك، كما قال الله عز وجل: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٠.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الروم، الآية: ٦٠.

وفي واقعة شهيرة جداً في تاريخ الإسلام رواها البخاري ومسلم، بل غالب كتب السنة، وجمع العلامة ابن حجر العسقلاني روايات هذه الواقعة من كتب السنة، والفروق بينها، في أول كتابه (فتح الباري: ١/١٤٢، طبعة دار الريان)، وفي هذه الواقعة الشهيرة جاء جبرائيل -عليه السلام- إلى مجلسٍ اجتمع فيه النبي ﷺ وأصحابه، وكان جبرائيل قد تمثل بصورة رجل بشري، وكان شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه من الصحابة أحد، وفي بعض الروايات: (**إذ أقبل رجل أحسن الناس وجهاً، وأطيب الناس ريحاً، كأن ثيابه لم يمسها دنس**)، وفي رواية أخرى: (**شديد سواد اللحية**)، وفي رواية أخرى: (**ليس عليه سحناء السفر، وليس من البلد**).

وهذا كان في غاية الغرابة بالنسبة للصحابة، حتى إنه علاهم الوجوم كما جاء في بعض الروايات: (**فنظر القوم بعضهم إلى بعض فقالوا: ما نعرف هذا**)! إذ إن هذا الرجل ليس من أهل المدينة فهم يعرفون أهلها جيداً، وفي ذات الوقت لا يمكن أن يكون رجلاً مسافراً قدم للمدينة لأن هيئته وملابسه ليست هيئة وملابس المسافر!

وفي مرأى من الناس جاء هذا الرجل -الذي هو جبريل في حقيقة الأمر- يتخطى بين الصحابة، حتى وصل إلى رسول الله ﷺ وجلس أمامه، وصارت ركبتا جبريل تلامس ركبتي محمد ﷺ، وزاد جبريل في الاقتراب فوضع يديه على فخذي النبي ﷺ، والناس لا يعرفون من هذا الرجل!

ثم بدأ جبريل يسأل النبي ﷺ أسئلة مرتبة هرمياً، تدور حول أصول الإسلام، والصحابة مشدودة أعناقهم إلى هذا المشهد.

فاستفتح جبريل أول سؤال بالاستفسار عن (مفهوم الإسلام)، والنبي ﷺ يجيب عن السؤال، ويستعرض تعريف مفهوم الإسلام، فيجعل الإسلام هو الأركان الخمسة التي تدور حول التوحيد والشعائر الأربع الكبرى.

ثم ينتقل جبريل ويسأل عن مرتبة أعلى وهي (مفهوم الإيمان)، والنبي ﷺ يجيب فيستعرض تعريف الإيمان، ويجعله يدور حول التصديق بالغيبيات أساساً..

ثم ينتقل جبريل ويسأل عن مرتبة أعلى من الإسلام والإيمان، وهي أعلى مراتب الدين، وهي (مفهوم الإحسان)، فيعرفها النبي ﷺ بتعريف في غاية الروعة، إذ يجعل الإحسان هو اليقين المطلق الذي تنهار فيه الفوارق بين الغيب والشهادة، حيث يقول جبريل: **«فأخبرني عن الإحسان»؟** فيقول المصطفى ﷺ : **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**.

انظر.. أين وصل اليقين؟! حيث أصبح الأمر الغائب الذي لا تراه كأنه الأمر الحاضر الذي تراه.

إنها تلك اللحظة التي يصبح فيها ما يراه بصر رأسك حِساً، بنفس المستوى الذي تراه بصيرة قلبك إيماناً.

عيون الموقن في رأسه وقلبه تسيران جنباً إلى جنب في هذه الحياة، ولا يتخلف أحدهما عن الآخر، ويبصران المرئي وغير المرئي بذات الحدة البصرية: «أن تعبد الله كأنك تراه».

ثم كشف رسول الله ﷺ أن هذا هو الإحسان الذي هو أعلى مراتب الدين..!

أعلى مراتب الدين سلوك قلبي محض!

ثم إن هذه الحقيقة الباهرة لم يخبر بها النبي ﷺ خبراً عارضاً، بل تم تنسيق مشهد مهيب يتحاور فيه سيد الملائكة وسيد البشر، جبريل ومحمد، والناس يسمعون، ليتلقوا هذه الحقيقة الكبرى..

ربـاه! أي شرف لـ(منزلة اليقين) أعظم من جعل الشارع لها أعظم مراتب الدين، فوق الإسلام والإيمـان! وفي جلسة تعليمية مشهودة بين جبرائيل ومحمد ﷺ.

على أية حال! هذه المواضع الكثيرة التي يبدئ فيها القرآن ويكرر ويعيد، في منزلة (اليقين)؟! وهذا المجلس الجبرائيلي/المحمدي العظيم الذي جعل فيه اليقين أعلى مراتب الدين، يثير الانتباه فعلاً حول موقع اليقين في دين الله..

فما هو هذا «اليقين» يا ترى؟! وما هي حقيقته؟! وما هي مـوارده؟! وهل نحن موقنون وبلغنا هذه المنزلة، أم نعاني من ضعف في اليقين؟!

اليقين في حقيقته هو كمال جزم القلب بخبر الله ورسوله، وفراغه من التردد والارتياب والاحتمالات.

اليقين هو أن يصبح (خبر) الله ورسوله كأنه (المعاينة)، فإذا صار الخبر كالمعاينة فقد كشفت سجف اليقين، وارتشفت النبع.

خذ بعض الأمثلة من خبر الله ورسوله ﷺ، ودعنا نختبر أنفسنا فوق مشرحة اليقين.

أخبرنا الله سبحانه الذي لا أصدق منه حديثاً، ولا أصدق منه قيلاً سبحانه، بقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[1].

فهل نحن حين نمد يدنا بحفنة من دراهم الصدقة ونضعها في يد المسكين يتشبع قلبنا يقيناً بأنها لا تنقص مالنا، بل سيخلفه الله؟! هل نجد في قلوبنا اليقين بهذا الخبر القرآني؟

ويقول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾[2].

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

فهل نحن إذا رفعنا أكفّنا ندعو الله ونسأله تمتلئ قلوبنا يقيناً بقرب الله وإجابته، أم نحن ندعو الله باعتباره سلوكاً مطلوباً فقط، لا أنه أعظم الوسائل فعلاً لتحقيق المطلوب؟

بل هناك من يدعو الله على طريقة «إن لم ينفع لم يضر!» والعياذ بالله..

وأخبرنا الله أصدق القائلين سبحانه عن أن القرآن رقية وشفاء بقوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

فهل تفور قلوبنا باليقين بخبر الله هذا، فنفزع للرقية كلما أصبنا بالمرض، ونرقي أنفسنا ونحن موقنون بخبر الله أن هذا القرآن شفاء؟

وأخبرنا الله بخيرية هذه الأمة على سائر الأمم، وأنها أحب الأمم إلى الله، كما في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[2]، ويقول الله عز وجل: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾[3].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

فهل المسلم -حين يقارن هذه الأمة ببقية الأمم التي تمتلك إمكانيات مادية- يشمخ قلبه يقيناً بخبر الله بشرف هذه الأمة وخيريتها وعلوها على غيرها، مهما امتلك الآخرون من إمكانيات مادية؟ أم يمور في زوايا القلب شكوك وارتيابات بخبر الله عن خيرية هذه الأمة؟

وشرع الله تأديب الزوجة الناشز بشروط وضوابط وأخلاقيات معروفة في كتب الفقه: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾[1].

فهل يستعلي القلب بخبر الله ويوقن أن تشريع الله هذا يفوق كل النظريات الغربية في هذا المجال؟ أم ترى القلب يتملص حرجاً من هذه الآية أمام الغربيين؟!

وأخبرنا الله تفصيلاً عن ترصد الشيطان وأفعاله بالإنسان مثل: النزغ، والهمز، والوسوسة، والتزيين، والوعد، والخطوات، والتسويل، والاستحواذ، والأزّ، إلخ.

فهل نعيش حياتنا ونحن موقنون بخبر الله عن حضور الشيطان وترصّده؟

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

وأخبرنا الله بوعدٍ عظيم أننا إن آمنا وعملنا صالحاً أن يحقق لنا رسالةً عظيمة وهي قول الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾[1].

فهل يفور القلب يقيناً بخبر الله عن هذه الحقيقة السياسية/القرآنية في طريق النهضة؟ وأن الإيمان والعمل الصالح هو الطريق للاستخلاف والتمكين في هذه الأرض؟

هذه مجرد نماذج لخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[2]، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾[3].

وهذه وعود القرآن التي وعدنا الله إياها: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾[4]، ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥ ﴾[5].

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٢.

(٤) سورة الروم، الآية: ٦.

(٥) سورة يونس، الآية: ٥٥.

فهل كانت وعود الله لنا سبحانه في القرآن محل جزم وثقة ويقين مطلق في قلوبنا، حاضرة في حياتنا؟ أم هي أشبه بالإيمان البارد الفاتر وهي أشبه بالحاضر الغائب؟

والعلاقة بين (وعد الله) و(عبودية اليقين) ليست مجرد استنباط، بل القرآن ذاته أشار إليها كما قال الله سبحانه: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[1].

فهل استطعنا أن نصل لعبودية اليقين، التي هي أعظم مراتب الدين فوق الإسلام والإيمان، فنخرج من قلوبنا كل ذرة احتمال أو ارتياب أو تردد؟

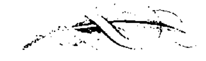
ومن المواقف المحزنة التي يمر بها المؤمن في حياته هي حينما يقارن بين تعظيم الوحي لشأن اليقين وجعله أشرف منازل الدين، وبالمقابل يأتيك من يردد: (لا أحد يملك الحقيقة المطلقة)! برغم أن الحقيقة المطلقة في القرآن أصلاً!

---

(١) سورة الروم، الآية: ٦٠.

المؤمنون يجاهدون أنفسهم ليوقنوا، وهؤلاء المساكين يجاهدون أنفسهم ليشكوا!

كلما طالعت تراجم أئمة الدين رأيت تنافسهم في (اليقين)، وإذا رأيت كتابات بعض المتفلسفة رأيت التنافس في الشكوك والارتيابات والحيرة، فشتان بين الفريقين.



لم نفعلها، وحُسِبت علينا!

حين يقف الإنسان في اليوم الآخر، لحظة تسليم الصحائف، والاطلاع على محتوياتها، فإن الإنسان ربما لن يتفاجأ كثيراً من خطايا نفذها فعلاً وقام بها، فهو قد علم مسبقاً بأنه سيراها في صحيفته..

وإنما المفاجأة المذهلة حقاً أن يجد الإنسان في صحيفته خطايا لم يفعلها هو، ومع ذلك يجدها مدونةً في كتاب أعماله، محسوبةً عليه..

ربما يجد الإنسان في صحيفته خطايا لعشرات الأشخاص، بل ربما لمئات الأشخاص، بل ربما لملايين الأشخاص،

وكلها مُجَدْولة في صحيفة سيئاته، وسيحاسبه الله عليها..

حسناً! من أين جاءته هذه الأعمال التي لم يعملها، وكيف حُسبت عليه خطايا لم يفعلها هو؟

استمع إلى هاتين الآيتين العجيبتين اللتين تكشفان هذه الحقيقة المخيفة: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾[1]. ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾[2].

يا الله! كم من كلمة نطقنا بها في مجلسٍ من المجالس، وقلنا فيها على الله بغير علم، فتأثر بها أحد الجالسين، فتجرأ على المعصية، فصارت خطيئته في صحائفنا ونحن لا نعلم! وكلما كرر معصيته، تكررت في صحائفنا، يلاحقنا شؤم تلك الجرأة على الشريعة!!

وكم من مقالة أثار فيها كاتب من الكتّاب شبهةً شوشت على آلاف القراء، فتساهلوا في ذلك الحكم الشرعي، ونقلوا هم بدورهم تلك الشبهة إلى آلاف آخرين،

---

(١) سورة النحل، الآية: ٢٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٣.

فيأتي ذلك الكاتب يوم القيامة يجرجر في صحيفته خطايا آلاف وآلاف من الناس لا يعرفهم!!

وكم من منتسب للمشيخة مكّنه التغريبيون من فضائياتهم، ليوفر لهم لغة شرعية مشحونة بمضامين غير شرعية، فانخدع به ملايين من العامة، وثقوا في لحيته وعباءته ولحنه بألفاظ تشبه ألفاظ المشايخ، فصار يدفع باتجاه توهين التدين في نفوس الناس، وأوقعهم في شذوذات فقهية وشبهات عقدية كانوا في سلامةٍ منها!!

وقد يظن بعض الناس أن ازدياد عدد المشاهدين لهذا المتصدر يدل على الإنجاز، بل ترى بعضهم يقول: هذا الرجل يسمع له ويشاهده كذا من الناس! ولا يعلم هذا المسكين أن زيادة الأرقام تعني زيادة عدد الضحايا، لا يعلم أن زيادة الأرقام تعني زيادة أوزار المضلَّلين التي ربما يحملها يوم القيامة..

والله إن الإنسان إذا جلس مع نفسه، وأخذ يتذكر خطاياه، أدرك أنها كافية أن توبق مستقبله الأخروي، فكيف إذا انضم إلى ذلك أن يحمل فوق ظهره معاصي أشخاص آخرين لا يعرفهم.

والله إن الغبن كل الغبن أن يرى المرء نفسه يوم القيامة يصطلي بنار جهنم لا لمعصية فعلها هو، وإنما يعاقب على معصية فعلها غيره!

إنها مجرد كلمة متهورة في حكم شرعي، استحسنها المرء بذوقه، وغفل عن تبعاتها المفتوحة.

إذا كان الأمر بمثل هذه الخطورة فكيف غفلنا عنه؟! إنه الرين الذي غلف القلوب حتى غفلت عن فظائع وأهوال هي أقرب للمرء من شراك نعله.

أخي الغالي! والله إني لأحب لك ما أحب لنفسي، فيا ليتنا - يا أخي الكريم - إذا أثيرت في مجلس من المجالس مسألة شرعية أن نتلو في أنفسنا قول الله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾[1]، وقول الله سبحانه: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾[2]..

فيا ليتنا نسلم من معاصينا، فضلاً عن أن نسلم من معاصي الآخرين!

---

(١) سورة النحل، الآية: ٢٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٣.

خاتمة

ما سبق كان نظرات وخطرات في بعض معاني الإيمان والتدين التي استعرضها القرآن، وهي تدور حول استحضار الآخرة ولقاء الله، والأحداث التفصيلية التي قصها القرآن عما سيحدث في هذا اليوم القريب القادم، وما وصفه القرآن من قسوة بعض القلوب حتى تتفوق على الصخور، وتعظيم كثير منا لدنياه أكثر من تعظيمه لصلاة الفجر، بل تقديم بعضنا لحظات الترفيه على الصلاة، وبهاء صورة المتهجدين بالليل حين رسمها القرآن، وخطورة استبعاد وقوع النفاق وأنه يقع بأمور نتهاون فيها، وتفخيم القرآن لشأن التسبيح حتى جعل الله العالم من حولنا يعج به،

وغفلة كثير منا عن القوة الساحقة التي يثمرها التوكل، وأثر الحسم والجزم والثقة واليقين بخبر الله ورسوله في صعود المؤمن إلى أعلى مراتب الدين، وأخيراً، العجب من سيئات قد تحسب على المرء وهو لم يفعلها.

وهذه المعاني الإيمانية ليست إلا نماذج يسيرة جداً مما احتواه القرآن بأمثلته وقصصه وبراهينه وتنبيهاته، وفي مطاوي آيات القرآن بحر لا تعرف شواطئه من حقائق التديّن وأسرار العلاقة مع الله سبحانه وتعالى، ودقائق التعامل مع الخالق جل وعلا.

والقارئ الكريم، ليس بعاجزٍ بإذن الله أن يتدبر القرآن وينفع أهله وأصدقاءه بمعاني الإيمان، وحقائق التدين والتنسك، والدروب التي توصل إلى الله سبحانه.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



الفهرس